الفصل الرابع

اغتراب البطل

- اسماعيل بطل « قنديل أم هاشم » يحيى حقى .
- خالد بطل « ملیم الأكبر » عادل كامل .
- كمال عبد الجواد « بطل الثلاثية » نجيب محفوظ .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

قنديل ام هاشم *

إن لحظة الانتزاع من الاسرة
والوطن ، لمواجهة الغربة والوحدة
والمجهول تضنى أعصابه أو تصهر قلبه .

خرج اسماعيل من الجامع وبيده الزجاجة وهو يقول فى نفسه للميدان وأهله : « — تعالوا جميعا إلى ، فيكم من آذانى ، ومن كذب على ، ومن غشنى ، ولكن رغم هذا لا يزال فى قلبى مكان لقذارتكم وجهلكم وانحطاطكم ، فأنتم منى وأنا منكم . وأنا ابن هذا الحى ، أنا ابن هذا الميدان. لقد جار عليكم الزمان ، وكلما جار واستبد ، كان إعزازى لكم أقوى وأشد »(١) .

فى هذا المشهد إرادة الاتصال بالغير والرغبة فى العودة إلى الجذر ، إلى الارتباط بالشعب . هذه المحاولة فى القضاء على الاغتراب لم يصل اليها اسماعيل إلا بعد مجاهدة ومكابدة وفكرية روحية خلال معايشته للواقع الاجتماعى لمجتمعه الهابط . مكابدة جعلت اسماعيل يكفر — أو يكاد — بالقيم التى حاول غرسها فى بيئته ، بل بجدوى العمل على تغيير هذا الوضع الهابط لمجتمعه .

— ١ —

نشأ اسماعيل فى حراسة الله ثم أم هاشم : حياته لاتخرج عن الحى والميدان ، أقصى نزهة أن يخرج إلى النيل ليسير بجانب النهر أو يقف على الكوبرى . شاب قروى فى المدينة عليه وقار الشيوخ ، بطئ الحركة غرير النظرة ، أكرش ، ساذج . وكان أمله ورجاء الأسرة كلها أن يدخل مدرسة الطب ،

(*) ظهرت الرواية لأول مرة سنة ١٩٤٤ ، والطبعة التى اعتمدت عليها ظهرت فى سلسلة اقرأ ، ديسمبر ١٩٥٤ .

(١) الرواية : ص ٥٥ — ٥٦ .

فاذا بها تصده عن أبوابها(٢) . وسمع الأب نداء خفيا :

« — لماذا لا ترسل ابنك إلى أوربا ؟ .. إلى أين ؟ بلاد بره ؟ كلمة لها رنين وسحر تتسلل ، كروح مبهمة لا يطمئن لها ، إلى المنزل الذى لاتنقطع فيه تلاوة القرآن ، وحيث الشرع هـــو الحق والعلم جميعا .. (٣) وقبل أن يسافر اسماعيل أنشأ الأب يقول لابنه : — « وصيتى اليك أن تعيش فى بلاد بره كما عشت هنا ، حريصا على دينك وفرائضه ، وان تساهلت مرة فلن تدرى إلى أين يقودك تساهلك ... وإياك أن تغرك نساء أوربا ، فهن لسن لك وأنت لست لهن ... وقرأ الفاتحة على ابنة عمه « فاطمة النبوية » وهو شارد اللب ، إرضاء لأبيه ، وقلبه يقول له : «احفظ عهدك» فيجيبه : « لماذا ! لماذا ! » كل هذه أشياء غامضة ، لأنه حـــتى اليوم ما يزال طاهرا عفيفا ، لم يقترب من امرأة . وإنه لكاذب — واسماعيل لايكذب - إذا أنكر أنه جوعان إلى فتاته السمراء ، إلى النساء جميعا . وسيما أخيرا إلى نساء أوربا » (٤) .

— ٢ —

عاد اسماعيل بعـــد سبع سنوات ، شابا أنيقا سمهرى القامة ، مرفوع الرأس ، متألق الوجه يهبط سلم الباخرة قفزا . إنه الدكتور اسماعيل الذى شهدت له جامعات انجلترا بالتفوق النادر والبراعة الفذة ، كان أستاذه يمزح معه ويقول له :

« — أرهن أن روح طبيب كاهن من الفراعنة قد تقمصت فليك يامستر اسماعيل . إن بلادك فى حاجة اليك فهى بلد العميان ...(٥) .

هبط اسماعيل سلم الباخرة ... وتعالت النداءات وكثر العناق والتقبيل .

---

(٢) الرواية : ص ١٠ .
(٣) الرواية : ص ٢٠ .
(٤) الرواية : ص ٢١ .

واسماعيل وسط التيار ، غير مغمور ، يلتقط بنهم كل ما يصل اليه ، وعلى شفتيه ابتسامة حلوة مطمئنة ، له أذن فارزة واعية ، ونظرة حية يقظة تريد أن ترى كل شيء ، إذا دققت النظر اليه ، وجدت تكورات وجهه قد زالت ... كانت شفتاه مرتخيتين ، قلما تنطبقان ، أما الآن فقد ضمهما عـــزم ووثوق ، يجتاز الحمارك ، وفى العربة يستمع لوقع عجلاتها بين الأسفلت والبلاط ، فيذكره تنافر النغم وتناوبه بيوم السفر كم يبدو له هذا اليوم مترديا فى هوة من ماض يعيد ، أين هذا المشهد الذى رأينا فيه اسماعيل وهو يصعد سلم الباخرة ويحمل فى أمتعته قبقابا إذ سمع أن الوضوء متعذر لاعتياد الناس لبس الأحذية فى البيوت ، وكان معه سلة ملأى بالكعك والتين »(٦) .

سبع سنوات قضاها اسماعيل فى انجلترا قلبت حياته رأسا على عقب ، كان عفا فغوى ، صاحيا فسكر ، راقص الفتيات وفسق ، هـــذا الهبوط يكافئه صعود لا يقل جـــدة وطرافة ، تعلم كيف يتذوق الطبيعة ، ويتمتع بغروب الشمس كأن لم يكن فى وطنـــه غروب لا يقل عنه جمالا — ويلتذ بلسعة برد الشمال .

وتعرف اسماعيل على (مارى) زميلته فى الدراسة ، لقد شغفها حبا فأثرته و احتضنته ، عندما وهبته نفسها ، كانت هى التى فضت براءته العذراء ، أخرجته من الوخم والخمول إلى النشاط والوثوق ، فتحت له آفاقا كان يجهلها من الجمال : فى الفن ، فى الموسيقى ، فى الطبيعة ، بل فى الروح الإنسانية أيضا ، علمته أن الحياة ليست برنامجا ثابتا ، بل مجادلة متجددة ، يقول لها : « تعالى نجلس » فتقول له « قم نسر .. » يكلمها عن الزواج ، فتكلمه عن الحب ، يحدثها عن المستقبل ، فتحدثه عن حاضر اللحظة . كان من قبل يبحث دائما خارج نفسه عن شيء يتمسك به ويستند إليه : دينه وتربيته وأصولها . هى منه مشجب يعلق عليه معطفه الثمين ، أما هى ، فكانت تقول له : « إن من يلجأ إلى المشجب ، يظل طول عمره أسيرا بجانبه

(٦) الرواية : ص ٢٤ ، ٢٥ .

يحرس معطفه » يجب أن يكون مشجبك فى نفسك . . . أن أخشى ما تخشاه هى القيود . وأخشى ما يخشاه هو الحرية . التعارف عنده اصطدام بين الشخصيات يخرج منـــه ظافرا أو خاسرا . أما هى ، فتهيم بالناس جميعا ، ولا تهتم بهم جميعا . التعارف عندها لقاء . والود متروك للمستقبل ومع تساوى ودها للناس كانت بتارة فى أقصاء الضعيف ، والسخيف والمتعالم ، والرذل ، والحزين والمنافق . رأته يطيل جلسته بجانب الضعفاء من مرضاه ، ينصت لشكواهم . وكل يطلبه لنفسه . فقالت له : — أنت لست المسيح بن مريم ... هؤلاء الناس غرقى يبحثون عن يد تمد إليهم فإذا وجدوها اغرقوها معهم ... كانت روحه تتأوه وتتلوى تحت ضربات معولها . كان يشعر بكلامها كالسكين يقطع من روابط حية يتغذى منها ، إذ توصله بمن حوله . واستيقظ فى يوم فاذا روحه خراب ، لم يبق فيها حجر على حجر . بدا له الدين خرافة لم تخترع إلا لحكم الجماهير . والنفس البشرية لا تجد قوتها ، ومن ثم سعادتها ، إلا إذا انفصلت عن الجموع وواجهتها . أما الاندماج فضعف ونفمه علمته أن قوة الفرد فى انعزاله وفرديته .

لم تقو أعصابه على تحمل هذا التيه الذى وجد نفسه غريقا وحيدا فى حدائه ، فمرض وانقطع عن الدراسة ، وافترسه نوع من القلق والحيرة ، بل بدت فى نظرته أحيانا لمحات من الخوف والحذر(٧) . فكانت (مارى) هى التى انقذت إسماعيل . أخذته فى رحلة إلى ليكزيك باسكتاندة ، يجولان بالنهار مشيا على دراجة بين الحقول ، أو يصطادان السمك ، بالليل تذيقه من متعة الحب أشكالا وألوانا . وشفى من هذه المحنة الروحية والفكرية . وخلص منها بنفس جديدة مستقرة ثابتة واثقة . إن طرحت الاعتقاد فى « الدين » فإنها استبدلت إيمانا أشد وأقوى « بالعلم » . أصبح لا يفكر فى الجنة ونعيمها ، بل فى بهاء الطبيعة وأسرارها . ولعل أكبر دليل على شفائه أنه بدأ يتخلص من سيطرة (مارى) عليه . أصبح لا يجلس بين يديها جلسة المريد أمام القطب ، بل جلسة الزميل إلى زميله . لم يدهش ،

---

(٧) الرواية : ص ٢٩ ، ٣٢ .

ولم يتألم كثيرا ، عندما رآها تبتعد عنه وتنصرف إلى زميل من جنسها ولونها » (٨) .

. . .

استقلت شخصية البطل اسماعيل واستوت . ومنذ اللحظة التى بدأ فيها « ينفصل » عن (مارى) بدأ يسعى نحو « الاتصال » بالغير . يرتبط بشىء يؤمن به — وإن كانت المعركة لم تنته بعد فما زال باطنه يمور بالتمزق « والانفصال » وينشوق إلى « الاتصال » — كان وهو فى مصر يشعر ، شعوراً مبهما ، وبأنة كذرة من الرمل اندمجت فى الرمال واندست بينها ، تلفه الجموع فيلتف معها كقطرة المطر يلقمها المحيط . صور متكررة متشابهة اعتادها فلا تجد روحه أقل مجاوبة . ولا يتطلع ولا يمل . لا يعرف الرضا ولا الغضب . أنه لبس منفصلا عن الجمع حتى تتبينه عينه ، وكل ما تقع عينه ولا يراه من الأشباح ، لها كلها مقدرة عجيبة على التسلل إلى القلب ، والنفوذ إليه خفية ، والاستقرار فيه ، والرسوب فى أعماقه ... أما الآن فلا

---

(٨) الرواية : ص ٢٣ .

ويبدو أن المثقف المصرى يتطلع إلى حياة يجد فيها القلب والعقل متعته دون ما عائق وهذا لا يتوفر إلا فى بيئة تحررية ليبرالية وهو ما يفتقده فى مجتمعه ولكنه فى تعرفه على الجنس لا يستطيع أن يتجرد من موروثه الشرقى ، وفى الوقت نفسه يتصدى له وهو حائر . إنه لا يتخيل أن تتركه المرأة إلى سواه وامل ذلك يشى أنه لم يصل بعد إلى سن الرشد العاطفى لم ينضج عاطفياً بعد .

إن محسن بطل « عصفور من الشرق » للحكيم يقول بعد أن تركته (سوزى) : آه يا سيدتى .. لماذا فعلت ذلك ؟ ... ولماذا لم تخبرينى بشروط اللعب من أول الأمر ؟ لو أنى عرفت هذا الوضع للأشياء ، لهان كل هذا .. ولكن المروع فى الأمر أنى أخذت كل شىء على سبيل الجد . . إن من السهل على عقليتى الشرقية البسيطة أن تعيش فى الأحلام كما تعيش فى الحقائق ، وإنها لتأبى أن تؤمن بانهيار الأشياء بمثل هذه السرعة — فى حين تبعث هى إليه بخطاب تأمل فيه ألا يعجز فى الانفصال عنها . إقرأ الرواية ، ص ١٤٣ — ١٥٢ .

وبينما ينهار محسن ويتردى فى هاوية اليأس ، يتماسك اسماعيل ، فى حين ينهالك « أديب » . اقرأ : طه حسين ، أديب ، سلسلة كتب للجميع ، يناير ١٩٥٢ ، ص ١٣٧ .

تمتاز نظرته بأية حياة ... نظرة سليمة ، كل عملها أن تبصر » (٩) فالبطل هنا يعيش فى وفاق مع بيئته فليس ثم تنافر بل وحدة وانسجام . انه هادىء فى سربه . أما الآن فقد بدأ يشعر بنفسه وبأن شيئا يشده ويربطه ربطا متينا بوطنه . علمته (مارى) كيف يستقل بنفسه فازداد إدراكا لنفسه ووعيا بها . بدأ الوعى الإجتماعى عند البطل يتخذ مسارا إيجابيا . فبدأ يشعر بدوره الاجتماعى ومركز بلده المتخلف إذا ما قيست بالبلاد المتقدمة التى نهل منها العلم . وقد أحس أن المعركة ستكون ضارية ، شعر بأنها معركة التخلف والتقدم وسيكون هو وقودها . علم أن سيكون بينه وبين من يحتك بهم نضال طويل ، ليس عبثا أن عاش فى أوربا وصلى معها للعلم ومنطقه ، كان يتشوق إلى المعركة الأولى . وسرح ذهنه فإذا هو هو كاتب فى الصحف ، أو خطيب فى أحد المجتمعات يشرح للجمهور آراءه ومعتقداته ، بدأ البطل الايجابى Positive Hero سارق اللهب ، لهب العلم ليحمله إلى وطنه ، وليشعل فيهم الأمل وينفث فيهم روح الكفاح والعمل . وأولى الخطوات التى تصورها اسماعيل ليبدأ حياته العملية أنه سيعرض عن خدمة الحكومة ويفتح عيادة فى أرقى أحياء القاهرة وسيثبت لبنى وطنه أن الدعاية التى داعبه بها أستاذه لا تخلو من الحق ، سيثبت لهم أن روح طبيب كاهن قد تقمصته وبعقله المثقف وبيده المرهفة سيغير من حال بلده « بلد العميان » ، سيفتح عيونهم على واقعهم الهابط .

وأول ما صدم حساسيته بالتخلف الرهيب عندما أطل من النافذة « فرأى أمامه ريفا يجرى كأنما اكتسحته عاصفة من الرمل ، فهو مهدم معفر متخرب . الباعة على المحطات فى ثياب ممزقة تلهث كالحيوان المطارد ، وتتصبب عرقا . ولما سارت العربة من المحطة ، ودخلت شارع الخليج الضيق الذى لا يتسع لمرور الترام ، كان أبشع ما يتصوره أهون مما رآه : قذارة وذباب ، وفقر وخراب ، فانقبضت نفسه ، وركبه الوجوم والأسى ،

---

(٩) الرواية : ص ١٠ .

وزاد لهيب الثورة فى قرارة نفسه ، وزاد التحفز » (١٠).

- ٣ -

جلس إسماعيل بعد عودته مع أسرته ، لم يأكلوا هم من حدة الفرح ، ولم يأكل هو من صدمة اليقظة وحتى فى اللحظة التى كان يجب أن تشغله سعادة العودة إلى أحضان والديه عن القياس والمقارنة والنقد لم يملك نفسه عن التساؤل : كيف يستطيع أن يعيش بينهم ؟ وكيف يجد راحته فى هذه الدار ؟

رأى إسماعيل أمه وهى تسكب زيت قنديل أم هاشم فى عينى فاطمة، قفز اسماعيل من مكانه كالملسوع . أليس من العجيب أنه — وهو طبيب عيون — يشاهد فى أول ليلة من عودته ، بأية وسيلة تداوى بعض العيون الرمد فى وطنه ؟ فصرخ فى وجه أمه :— حرام عليك الأذية. حرام عليك. أنت مؤمنة تصلين ، فكيف تقبلين أمثال هذه الخرافات والأوهام ؟..

ونطقت أمه أخيراً :

— يابنى ده ناس كتير يتباركوا بزيت قنديل أم العواجز . جربوه وربنا شفاهم عليه . أحنا طول عمرنا جاعلين تكالنا على الله وعلى أم هاشم . ده سرها باتع .

— أنا لا أعرف أم هاشم ولا أم عفريت . وسمع صوت أبيه كأنما يصل اليه من مكان سحيق :

— ماذا تقول ؟ هل هذا كل ما تعلمته فى بلاد بره ؟ كل ما كسبنا منك أن تعود إلينا كافراً ؟ (١١) ، لكن اسماعيل مضى فى هياجه وانتزع من أمه الزجاجة وطوح بها من النافذة ، وهرب من الدار وصمم على أن يطعن الجهل والخرافة فى الصميم طعنة نجلاء وتوفقد روحه . شعر إسماعيل أنه هزم فى الجولة الأولى من المعركة لكنه لن يستسلم .

* * *

(١٠) الرواية : ص ٣٥ ، ٣٦ .
(١١) الرواية : ص ١٠ — ٤١ .

هرب اسماعيل من الدار « وأشرف على الميدان فاذا به يموج كدأبه بخلق غفير ، ضربت عليهم المسكنة ، وثقلت بأقدامهم قيود الذل . ليست هذه كائنات حية تعيش فى عصر تحرك فيه الجماد . . . وهو يتطلع إلى الوجوة فلا يرى إلا آثار استغراق فى النوم كأنهم جميعاً صرعى أفيون . لم ينطق لهم وجه واحد بمعنى إنسانى . وصب كل تمرده على المصريين فهم « جنس سمج ثرثار ، أقرع أمرد ، عار حاف ، بوله دم ، وبرازه ديدان . يتلقى الصفعة على قفاه الطويل بابتسامة ذليلة تطفح على وجهه . ومصر قطعة (مبرطشة) من الطين أمنت فى الصحراء تطن عليها أسراب من الذباب والبعوض ، ويغوص فيها إلى قوائمه قطيع من الجاموس نحيل ... يزدحم الميدان ببائعى اللب والفول ، وحب العزيز ، ونبوت الغفير والهريسة والسمبوسكة ، بمليم الواحدة . فى جنباته مقاه كثيرة على الرصيف بجوار الجدران ، قوامها موقد وإبريق وجوزة . أجساد لم تعرف الماء منذ سنين ، الصابون عندها والعنقاء سواء ، تمر أمامه فتاة مزججة الحواجب .. تحجبت ببرقع يكشف عن وجهها . وما معنى هذه القصبة التى تضعها على أنفها أف ما ابشع رياء هذا المنظر وما أقبحه سرعان ما بدأ الناس يحككون بها كأنهم كلاب لم يروا فى حياتهم أنثى » (١٢) — ونسى إسماعيل كيف كان يحوم حول المترددات على المسجد يتلمس بينهن ، نسى نعيمة ، المومس السمراء التى تطلع إليها بنهم وهو على عتبات المراهقة قبل سبع سنوات — ولكنه اسماعيل المتمرد « هنا جمود يقتل كل تقدم ، وعدم لا معنى فيه للزمن ، وخيالات المخدر ، واحلام النائم والشمس طالعة ... لو استطاع اسماعيل لأمسك بذراع كل واحد منهم وهزه هزه عنيفة وهو يقول : استيقظ ، استيقظ من سباتك وأفق وافتح عينيك . ما هذا الجدل فى غير طائل ؟ .. تعيشون فى الخرافات ، وتؤمنون بالأوثان ، وتحجون للقبور ، وتلوذون بأموات ... وشعر إسماعيل بأن هذة الجموع أشلاء ميتة تطبق على صدره ، وتكتم أنفاسه ، وتبهظ أعصابه . يصطدم به بعض المارة كأنهم عمى يتخبطون . هذا الرضا عجز ،

(١٢) الرواية : ص ٤٣ — ٤٤ .

وهذه الطيبة بلاهة ، وهذا الصبر جبن ، وهذا المرح انحلال » (١٣)

وعندما دخل الجامع التفت إلى ركن فى المقام ، وأهوى بعصاه على القنديل هجمت عليه الجموع ، وتهدمت فوقه ، فخر على الأرض مغمى عليه ، ضربوه ، وداسوه بالأقدام ، وجرح رأسه »(١٤) .

وهذه هى الجولة الثانية التى هزم فيها إسماعيل . ظل وهو راقد فى الفراش يفكر فيما حدث « هل يعود إلى أوربا ليعيش وسط أناس يفهمون الحياة ؟ إن الجامعة عرضت عليه منصب مساعد استاذ فرفضه بغباوة ، ولعلهم يقبلونه الآن إذا طلب . ولم لا يتزوج هناك ويبنى لنفسه أسرة جديدة بعيداً عن هذا الوطن المنكود ... وما فائدة الجهاد فى بلد كمصر ومع شعب كالمصريين ، عاشوا فى الذل قرونا طويلة ، فتذوقوه واستعذبوه »(١٥) .

وهذه الأزمة الروحية ، والغربة التى يعانيها إسماعيل إنما تعكس أزمة المثقف فى الدول النامية عموماً . وتشى بالنغمة التى لا يمل المثقفون الحديث عنها ، وهى الهجرة بخيرتهم إلى الدول المتقدمة . فهم من رهبة التخلف الذى يعانيه مجتمعهم لا يستطيعون الصمود على الأرض التى انجبتهم . ومن حسن الحظ أن اسماعيل كان يشعر « بجسمه وقد شد إلى هذه الدار التى لا يطيقها ، وربط إلى هذا الميدان الذى يكرهه ، فمهما حاول فلن يستطيع فكاكا . فشفاؤه لن يكون بالهروب إلى أوربا أو بالإقامة بعيدا عن أسرته فى بنسيون مدام انتاليا وإنما فى أن يمد يده إلى هؤلاء الذين نعتهم بأقذع النعوت . لم يعد أمام اسماعيل إلا أن يظل فى مصر ويحاول أن يجد لنفسه سبيلا ينقذه من البوار ويخلص روحه وعقله من دمار شامل .

* * *

بدأ اسماعيل علاجه لفاطمة كما يقتضيه طبه وعلمه . حاول أن يحشد كل

---

(١٣) الرواية : ص ٤٥ .
(١٤) الرواية : ص ٤٦ .
(١٥) الرواية : ص ٤٨ .

ما فى جعبته من علم وفن ليؤكد للجميع أن العلم وحده هو الذى يبرئ المريض لم يحاول أن يكتسب ثقة المريض بل كان همه تأكيد ذاته وتفوقه. بينما اسلمت الفتاة نفسها إليه مطمئنة ، لايهمها مرضها بقدر ما يهمها أن تكون موضع رفقه وعنايته . فماذا حدث؟ لقد انطفأ آخر بصيص تتعزى به لأن المريض لايؤمن بالطبيب الذى لايهتم بإنسانيته ومشاعره .

لم يستطع الإقامة فى الدار وعماها دليل على عماه . ويقف وحده فى الميدان ، ساعات طويلة ، سارح الذهن شارد اللب ، تتسرب إلى اذنه نداءات الباعة .هى هى لم تتغير . وبدأ يتساءل عن السبب فى فشله وجاءه الجواب من نفسه ، من داخله . إن « كل من خدمهم من عليهم واستعجلهم الجزاء أضعافا مضاعفة . لم يخدمهم أحد لله أو حبا فيهم ، ومع ذلك جروا وراء كل من توهموا فيه الاخلاص وتشبثوا بأذياله ، ورفضوا أن يروا ضعفه أو خيانته »(١٦) أدرك أن ليس كل ما فى مصر شراً بل ثمة خصال حميدة تصلح أرضا صلبة لكل صاحب رسالة يريد أن يقوم بدوره « هذا شعب شاخ فارتد إلى طفولته . لو وجد من يقوده لقفز إلى الرجولة من جديد فى خطوة واحدة ، فالطريق عنده معهود والمجد قديم ، والذكريات باقية »(١٧) وهو قد عرف أن « هناك أبنيه ضخمة جميلة ، وفن راق ، وأناس وحيدون فرادى ، وقتال بالأظافر والأنياب ، وطعن من الخلف ، واستغلال بكل الوسائل . مكان الشفقة والمحبة عندهم بعد العمل وانتهاء النهار » .

وعند حلول شهر رمضان كانت فرصة لاسماعيل — رغم انه لم يخطر له أن يصوم — أن يتدبر موقفه فيناجى نفسه : لماذا خاب؟ لقد عاد من أوربا بجعبة كبيرة محشوة بالعلم وفشل . لماذا ؟ . لقد عرف السبب . إنه الاستعلاء على أهله ، والتعالى بعلمه ، بمن عليهم وكأنه يتصدق عليهم . لم يفهم أن الارتفاء بهم دين مستحق . لذا فهو يتصالح مع روحه . بدأ الوفاق مع

---

(١٦) الرواية : ص ٥١ .

(١٧) الرواية : ص ٥١ .

نفسه ، تطلع إلى من حوله بروح جديدة لا تملك إلا « الاتصال » . لكن هذا الاتصال لا يتم إلا إذا وقر الإيمان فى القلب وصدقه العمل . والإيمان هنا يعنى الإيمان بالشعب وبتراثه الاجتماعى عامة . لذا فقد « اطمأنت نفس اسماعيل وهو يشعر أن تحت أقدامه أرضا صلبة ، ليس أمامه جموع من أشخاص فرادى ، بل شعب يربطه رباط واحد : هو نوع من الإيمان . . . وعندئذ بدأت تنطلق له الوجوه من جديد بمعان لم يكن يراها من قبل. هنا وصول فيه طمأنينة وسكينة ، والسلاح مغمد . وهناك نشاط فى قلق وحيرة»(١٨). عادت الروح إلى البطل اسماعيل فهو لا يظن ان هناك شعبا حافظ على طابعه وخصائصه كالمصريين .

وحلت ليلة القدر ، فيتصالح اسماعيل مع شكل الإيمان كما تصالح من قبل مع الإيمان نفسه — الشعب — « فهمت الآن ما كان خافيا علىّ . لا علم بلا إيمان . إنها لم تكن تؤمن بى ؛ انما إيمانها ببركتك أنت وكرمك ومنك . ببركتك أنت يا أم هاشم »(١٩) وهكذا آمن اسماعيل بالشعب ثم آمن بما يؤمن به الشعب من تراث ، ويستوعب التراث التبرك بالأضرحة بوصفه من الشعائر التى يؤمن بها الشعب ، فليس هناك تناقض طالما ان الهدف فى النهاية واحد : الخير المطلق للإنسان . وهذه محاولة للتوفيق بين الدين والعلم ، بين الإيمان بالتراث والإيمان بروح العلم . فتساءل اسماعيل « ماذا لو جمع بين الحسنيين ؟ ماذا لو أعطى مصر علم أوربا وحافظ لها على ما خلص لها من خير ؟ لماذا لا يسعى إلى تغيير الناس بأن ينزل إلى الدرك الأسفل الذى هبطوا إليه ، ثم يسعى إلى الارتفاع بهم رويداً رويدا ؟ هنا تنبهت فى نفسه تلك الناحية التى تسعى نحو المماشاة ، والتوفيق . هنا عاد إلى سابق عادته ، تلك التى كانت تنزع به إلى أن يجلس إلى العجزة والمرضى والخاطئين ، ويماشى ، كرما منه ، امنطقهم لمريض بمنطقة السليم ، هنا عاد إلى نفس الموقف الذى حاولت

(١٨) الرواية : ص ٥٣ .

(١٩) الرواية : ص ٥٤ .

مارى أن تزحزحه عنه حينما صرخت فى وجهه : « أنت لست المسيح بن مريم »(٢٠) فالعودة إلى الشعب عند اسماعيل ليست تنكراً لمبادئه أو نكوصاً عنها إذ هى عودة إلى الجذور ، والجذر أصل الشىء — وهنا هو الشعب — هى عودة تحمل فى أعطافها وبين حناياها مزيدا من المحبة والفهم المتبصر لنسيج المجتمع وشفاء من الاغتراب .

خرج اسماعيل من الجامع بعد أن وصل إلى درجة من التوازن النسبى بين الذات والموضوع . وأحس أن فاطمة تؤمن بزيت القنديل فأراد أن تثق به وبعلاجه فأتاها بشىء تؤمن به ، بزيت القنديل « لقد جئتك ببركة أم هاشم ستجلى عنك الداء ، وتزيح الأذى ، وترد إليك بصرك فاذا هو حديد » . واستمر يقول وهو يداعبها ويشد ضفيرتها « وفوق ذلك ، سأعلمك كيف تأكلين وتشربين ، وكيف تجلسين وتلمسين ، سأجعلك من بنى آدم »(٢١) هنا بدأ المريض يثق فى طبيبه وبدأ الدكتور اسماعيل علاجه العلمى ، وكان هذا تنازلا لاشك فيه ولكنه ليس تنازلا عن المبدأ إنما عن الوسيلة ، لم يكن فيه دعوة للخرافة بل محاولة لتطويق الخرافة وعزلها ثم تجاوزها وإحلال العلاج الطبى محلها . لقد رسم لها برنامجا كاملا لتثقيفها تصبح فى نهايته آدمية مكتملة الإنسانية :

عاد من جديد إلى علمه وطبه يسنده الإيمان . لم ييأس عندما وجد الداء متشبثا قديما ، يجادله بعناد ولاينزحزح . ثابر واستمر ، ولاحت بارقة الأمل . فناطمة تتقدم للشفاء على يديه يوما بعد يوم وإذا بها تكسب فى آخر العلاج ما تأخرته فى مبدئه ، فهى تقفز أدواره الأخيرة قفزا(٢٢) .

---

(٢٠) د. على الراعى ، دراسات ... ص ١٧٢ .

(٢١) الرواية : ص ٥٦ .

(٢٢) الرواية : ص ٥٦ .

وأسلوب اسماعيل فى علاجه لفاطمة يدخل فى فرع الطب النفسجسمى Psychosmatic Medicine وهو أسلوب يستند إلى الفهم الكامل للنواحى النفسية والجسمية للمريض ثم الظروف الاجتماعية للمريض ولذا فقد نجح عندما التفت إلى هذا الأسلوب عندئذ أشعرها أنه ليس مجرد=

ودليل آخر على عدم استسلام اسماعيل للخرافة أنه لم يسترد ثقته بنفسه كطبيب إلا بعد انتهاء علاجه الطويل الشاق لفاطمة . « ولما رآها ذات يوم أمامه سليمة فى عافية فتش فى ذهنه وقلبه عن الدهشة التى كان يخشاها فلم يجدها » (٢٣) ولو كان الطبيب قد آمن بخرافة الزيت والقنديل ، لما كان فى حاجة إلى أن يصبر ويكافح كل هذا الكفاح حتى تعود إليه الطمأنينة وتذهب عنه الدهشة » (٢٤) فهو قد « استمسك من علمه بروحه وأساسه ، وترك المبالغة فى الآلات والوسائل واعتمد على الله ، ثم على علمه ويديه ، فبارك الله فى علمه ويديه » حاول أن يجند طاقة المريض الروحية وقدرة جسمه على التماثل للشفاء ويستخدم هذه القوة الروحية للعلاج المادى . ومن آيات الإيجابية التى وإن تكن محدودة بطاقة اسماعيل كفرد وبظروف مجتمعة المتخلف والتى تتفق مع مسار المماشاة والتوفيق أنه افتتح عيادة فى حى البغالة بجوار التلال . الزيارة بقرش واحد لا يزيد . لم يكن من زبائنه متأنقون ومتأنقات بل كلهم فقراء ، حفاة وحافيات .

نجح اسماعيل البطل الإيجابي Positive Hero فى أن يحول تمرده الأهوج إلى فهم عميق لطبيعة البيئة التى يريد تغييرها ولطاقتها على قبول المبادىء الجديدة . وبذلك تحول هذا التمرد إلى خطة عمل وأسلوب حياة . حاول أن يكون « مسيح العصر » ، « مسيح الفقراء » ومن هنا فسلوكه يبدأ

= طبيب عيون وإنما هو قبل ذلك إنسان يؤمن بما تؤمن به . وبذلك خلق تواصلا وجدانياً بينه وبينها.

وليس ذلك محاولة لالتماس أدلة علمية للدفاع عن موقف اسماعيل ، مما يدخل فى باب التعسف وإنما هى محاولة للإقتراب من روح النص الروائى ومعايشة البطل والتأمل فيما وراء النص من مرام . ومن ثم فليس هذا ترخصاً عندما نقول إن هذا الأسلوب فى علاج فاطمة أسلوب علمى أساساً . فإسماعيل لم يستخدم القنديل فى العلاج بل استعان به لخلق التواصل المطلوب بين الطبيب المعالج والمريض الذى يفتقر إلى الثقة المفروضة بينه وبين طبيبه . أما علاجه فقد كان يعتمد على أحدث الوسائل العلمية الطبية .

إقرأ : الطب النفسجسمى ، د. عمر شاهين ، مجلة الصحة النفسية ، أبريل ١٩٧٠ ص ٢ .

(٢٣) الرواية : ص ٥٦ .

(٢٤) د. على الراعى ، المراجع السابق ، ص ١٧٣ .

بنزوله إلى الدرك الأسفل حيث يرقد مجتمعه فى شبه موات ويمد يده إليه ويرتفع به ، ومعه ، رويدا رويدا . وليس من شك فى أن هذا العمل الثورى المحدود يحمل بذور العمل الإيجابى من أجل تطوير المجتمع ، إذ أنه يقترب بوضوح نحو الشعب ويجعل تقدمه المادى مستندا إلى حياته الروحية ، وتكمن بطولة اسماعيل فى أنها بطولة الإنسان العادى الذى لم يرزق القدرة على العمل الجماعى المنظم والذى لم يؤت القدرة على قيادة المجموع : أثبت بارتباطه بجذوره الشعبية أن البطل ابن المجتمع ، والمعبر عن إرادة هذا المجتمع وظروفه الموضوعية(٢٥) . فبطولته ليست بطولة « الكارزما » Charisma ، الذى يظهر وقت الأزمات الاجتماعية ويكون بمثابة الروح الملهمة التى تجسدها القوى الإلهية (٢٦) وليست بطولته بالمعنى الذى جاء فى نظرية « كارلايل » عن الأبطال . إنما هى بطولة الإنسان العادى ، الإنسان ذى الوعى الاجتماعى الثورى ، لا المتمرد ، الذى يريد أن يخلق مجتمعا جديدا من خلال فهمه لطبيعة البناء الاجتماعى ، ومن المسلم به أن تصور البطولة الفردية بمعزل عن القوى الاجتماعية يفضى إلى تأليه البطل ، واعتباره معجزة خارقة تستعصى على الفهم . وتبرز بطولة « اسماعيل » وثوريته فى أنها مساهمة إيجابية فى ابراز ذاتية المجتمع والارتقاء به اجتماعيا . ولما كان مستوى اسماعيل الثقافى يختلف عن مستوى الجماهير التى يعيش بينها فقد حاول أن يقيم جسرا ثقافيا بينه وبينها . وهذه بطولة لا تقل فى قيمتها عن إثارة الثورة وقيادتها أمام الاستعمار (٢٧) .

ولقد رأى بعض النقاد فى اسماعيل بطلا منهزما على أساس أنه قدم من أوربا يبشر بالعلم ثم اضطر تحت ضغط الواقع إلى التسليم أمام الخرافات(٢٨)

---

(٢٥) راجع رأى بليخانوف فى قضية دور الفرد فى ص ١٣ من المدخل من هذا البحث .

(٢٦) د. عبد الجليل الطاهر : المشكلات الاجتماعية فى حضارة متبدلة ... ص ٢٦٦ .

(٢٧) أنظر د. مجدى وهبه ، فى قلق المثقفين العرب ، مجلة حوار ، السنة الأولى ، العدد الرابع ، أيار – حزيران (مايو – يونيو ١٩٦٣) ص ٤٠ .

(٢٨) عبد المنعم صبحى ، لقاء مع يحيى حقى ، مجلة بناء الوطن – فكروفن ، العدد ٤٨٣ أول مايو ١٩٦٦ ، ص ٦ .

وهذا الرأى لا يستقيم مع موقف اسماعيل من المجتمع من ناحية ومن ناحية أخرى لايستقيم مع نوعية بطولة اسماعيل التى أشرتُ إليها . ومن الأهمية أن نورد رأى يحيى حقى فى هذه القضية بوصفه صاحب هذه الشخصية ومبدعها فضلا عن أنه يتفق مع موقفى الذى اتخذته وأوضحته من خلال معايشتى لاسماعيل . يقول يحى حقى : « أنا معترض على وصف اسماعيل بأنه منهزم . فعندما حاولت أن أرسمه على غير ذلك حاولت أن أرسمه مثقفا ، يحاول جاهداً العثور على الطريقة أو الأسلوب الذى يلتقى به بالمجتمع . هل هو رفض ؟ الطريقة التى اهتدى إليها : الايمان . . حياة المجتمع قائمة على الإيمان . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، لا وسيط للالتقاء إلا بالاندماج فيهم ، والتركيز على الحقيقى والأساس والجوهرى . . إسماعيل فى رأيى لم ينهزم ولم ييأس ، إنما أندمج فى الآم الشعب . . .

وفى الحقيقة كان موقف المثقفين فى وقت كتابة هذه الرواية ، موقفاً قلقاً ، يتخلله التمرد تارة ، والثورة حيناً آخر ، والسلبية فى أحيان أخرى ، كانت البيئة الثقافية ضحلة نتيجة الاستعمار الطويل ، وكان طريق الثورة غير واضح . وكانت القيادة غير ملموسة . وكان « العلم » ، الأمل بالنسبة للمثقفين قد ارتبط بالاستعمار وبدمار الحرب العالمية الكبرى .

وكان على المثقف أن يسلك طريقاً من عدة طرق . . .

• أن ينفصل عن المجتمع عجزا وفشلا ، مثلما نجد فى « مليم الاكبر » بعادل كامل ، التى تعتبر نموذجا واضحا لهذا الانفصال . . .

• أن يتعالى على مجتمعه ، كما حدث فى « يوميات نائب فى الأرياف » لتوفيق الحكيم ، التى تحس فيها بالكاتب ينظر من « علٍ » .

• أن يحاول الاندماج فى الناس ، حاملا اليهم ثقافته ، غارقا فى آلامهم وتقاليدهم ، وهذا ما فعله يحى حقى فى قنديل أم هاشم(٢٩) . وأود أن أوضح

---

(٢٩) المرجع السابق: الصفحة ذاتها .

إبعاد موقف هذا المثقف من خلال الإطار التاريخى الاجتماعى الذى أفرزه . فهو يمثل البطل الثورى الرومانسى ، لقد ظهر هذا البطل المغترب ثمرة للاحتكاك بين حضارة مادية عملية منتصرة ، مستعمرة ، وحضارة آفلة مغلوبة . وهذا البطل — من خلال احتكاكه بمجتمعه — يدرك الظروف الموضوعية لهذا المجتمع . وهو أيا كان معدنه الاجتماعى يحاول أن يماشى مجتمعه بعد ما أدرك عجزه عن الارتفاع به (إسماعيل) وأما أن يعلو عليه ويرتبط بالطبقة المترفة (خالد) وإما أن يعتزل مجتمعه ، ويحيا حياة الغرباء (كمال) إنه يمثل أو يعبر عن موقف واحد : تمرد رومانسى « واحدى » الجانب . وإن هؤلاء الأبطال يمثلون البطل الثورى الرومانسى الذى ساد فى فترة ما بين الحربين ، وهو ثورى لأنه يتمرد على مجتمعه الهابط ورومانسى لأنه يفتقر إلى الفعل والقدرة على التنظيم والقيادة . ومن هنا فالرومانسية الثورية تعد ثورية فى إطارها التاريخى . أما بالمفهوم الاجتماعى المادى فهى إصلاحية .

أما الدكتور على الراعى فيرى أن « قنديل أم هاشم » حكاية رمزية تقدمية بكل ما فى هذه الكلمة الأخيرة من معنى . . . أنها تنادى بالعلم مع احترام الإنسان » وتدعو إلى أن يخضع التطبيق لظروف البيئة المادية والروحية وتاريخها وتراثها . وهى إلى هذا تهاجم الفردية والانعزال ، وتبشر بدفء الإندماج وانتصار الاتحاد على الأنانية والحرية الزائفة . وتحتفى بكل من الإيمان الساذج « الخاطئة السمراء » والإيمان المركب الذى هو حصيلة صراع وعذاب طويلين (إيمان اسماعيل الأخير) ، لأن كليهما يؤدى إلى الارتفاع بالإنسان ، إلى الحياة الفاضلة : حياة العمل والإنتاج وحب الغير . « والذين كانوا ينتظرون من إسماعيل أن يسير قدما إلى الثورة بالسلاح والشعار والقلم مخطئون أيما خطأ . أنهم يطلبون عنده ما لا يملكه ، وما لا يستطيع تقديمه . إنما إسماعيل ثائر فرد ، أقصى أمانيه أن ينشر الخير والتقدم فى دائرة من الناس تستطيع قوى الفرد أن تبلغها »(٣٠) وهذا بالفعل

---

(٣٠) د. على الراعى ، المرجع السابق ، ص ١٦٧ .

ما قام به إسماعيل بعد أن وصل إلى درجة كافية من الوعى بالذات أتاحت له أن يتجاوزها إلى الغير ، ويقول روجيه جارودى «الوعى بالذات مرهون بالاتصال مع الآخرين — هذه النظرة تسمح بتحرير نا من الفردية مع استمساكنا باحترام استقلال الوجدان ، أنها تساعدنا على أن نفهم أن الإنسان خالق ، بل خالق ذاته ، وتعطينا وسائل التغلب على « الأنينة » ، التى هى عكس الخلق ، التغلب عليها فى سبيل الجميع : أى أنها تتيح لنا بناء أخلاق لا انفصام بين جانبيها الاجتماعى والشخصى ، بريئة من هذه الثنائية لا فى سند تبريرها النظرى فحسب بل تحقيقها العملى أيضاً » (٣١) ومن ثم فقد حاول إسماعيل أن يغير ما بنفسه أولا فيؤمن بالشعب وبتراثه الاجتماعى عامة . ثم يحاول بعد ذلك أن يمتد تأثيره إلى من حوله . فثورته تعد نموذجاً من « الحرب المحدودة ، ضد التخلف والتبعية ومثالا طيباً لدور المثقف فى الدول النامية وليس هذا بالقليل . أما « الحرب الشاملة » فأدرك إسماعيل عدم قدرته على التصدى لحمل لوائها . كما أنه لم يأنس فى نفسه المقدرة على تحقيق ما طاف بذهنه لحظة قدومه إلى مصر . فلم يصبح كاتباً فى الصحف أو خطيباً فى أحد المجتمعات ، يشرح آراءه ومعتقداته . فربما وجد فى هذا العمل العام وسيلة لإعادة صياغة المجتمع على أسس أقرب إلى الرقى والتقدم . ولكن هذه كانت مجرد خواطر فى ذهنه لم تخرج إلى حيز التطبيق العملى . وصحيح أن ثوريته تفتقد القدرة على التنظيم والقيادة لكن الدور الذى قام به وسط مجتمعه الهابط دور ثورى فى إيجابيته .

عند النظر والتأمل فى المضمون الذى ينبث فى حنايا العمل الفنى نرى فى القنديل أثر المزج بين الواقع والرمز . فالقنديل يهدف أولا إلى تصوير أزمة المثقفين فى الدول النامية وتمزقهم بين الشرق والغرب» (٣٢) وعلى

---

(٣١) روجيه جارودى : ماركسية القرن العشرين ، ترجمة نزيه الحكيم ، الطبعة الأولى ، نوفمبر ١٩٦٧ ، ص ١٤٠ .

(٣٢) أوضح يحى حقى فى أحاديثه أثر الصراع الداخلى بين حضارتى الشرق والغرب على مستوى الفرد كما انعكس ذلك فى شخصية بطله « اسماعيل » فيقول : «اتصلت بالحضارة=

هذا النول – الذى يستمد مادته من الواقع – ينسج الكاتب خيوطه الرمزية. فـ « إسماعيل » وفق هذا المفهوم هو روح مصر البازغة ، و « فاطمة النبوية » « هى مصر القديمة بكل ما لديها من تراث ، و « مارى رمز للغرب الحديث بكل ما يستند إليه من حضارة علمية تكنولوجية أهدرت قيم الإنسان الروحية » .

ومعنى الحكاية وفق هذا المنظور أن مصر ترفض الروح الجديدة إذا جاءت إليها فرضاً تعسفياً آلياً من الخارج ، ولكنها تقبلها بشرط أن تحترم التراث وأن تحيى الإنسان فى الإنسان ، أن تسعى إلى الاندماج دون تسلط . وهى بهذا المفهوم إحتجاج فنى على الزحف الأوربى الامبريالى الذى تقوده الدول المتقدمة . ولذا لم نستجب عيناً « فاطمة النبوية » للروح المتغطرسة « إسماعيل المتمرد المتعنت » بل تفاقم خطبها . فلما تنازلت الروح الجديدة عن غرورها أمكن للعلم المسلح بالإيمان أن يحقق المعجزة .

والمتأمل فى البناء الروائى يلمح احتفال الكاتب بالحياة الروحية للبطل

= الغربية إتصالا مباشرا . وكان ذلك فى مدينة روما سنة ١٩٣٤ .كنت هناك نائباً القنصل . وكان هذا أول لقاء لى بالحضارة الغربية . مكثت هناك أربع سنوات ثم عدت إلى مصر . عدت بإحساسات كثيرة حاولت أن أعبر عنها بقصة « قنديل أم هاشم » .

إقرأ : مجلة « القصة » ، العدد الرابع ، السنة الأولى ، أبريل ١٩٦٤ . ص ٢٧ . أجرى الحديث محمد عبد الحليم عبد الله . ويقول : « ... بعد أن عدت من أوربا شعرت بجميع الأحاسيس التى عبرت عنها فى « قنديل أم هاشم » إن بطلها شخص يهز هذا الشعب هزاً عنيفاً ، ويقول له : إصح فلقد تحرك الجماد ... وكل ما كان يهمنى فيها أن أصور الصدام بين الشرق والغرب ، بين المادة والروح ، بين الثورة على خمول الشعب والرغبة المتأججة فى تحريكه » .

اقرأ : عشرة أدباء يتحدثون بقلم فؤاد دوارة ، كتاب الهلال ، يوليو ١٩٦٥ ، ص ١٠٩ ، ١١٣ . ويقول : لقد كنت فى أوربا ، وكنت تائهاً بين الحضارتين الشرقية والغربية ، ولكنى كنت أكثر حنيناً لحضارتنا . وكانت نتائج هذه الحيرة رواية « قنديل أم هاشم » الجمهورية ، الأربعاء ١٩ يونيو ١٩٦٨ – أجرى الحديث محسن الخياط . ومنطوق ما سبق يلقى فى مضمونه عمق التمزق والخراب الروحى الذى وقع هذا الجيل فريسة له . ونجد تصويراً لأبعاد هذه الأزمة بوضوح فى كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوى . هموم الشباب ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٥ ، الصفحات ٣٥ ، ١٢١ ، ١٢٥ .

بحيث جاء تطور شخصيته ونموها تبعاً للأحداث الروحية التى يعانيها ، بمعنى أن رسم شخصية البطل وسائر الشخصيات ينبثق من المشاعر الداخلية للبطل . ولم يلجأ إلى رسم شخصية البطل من الخارج إلا فى مواضع قليلة كانت لإلقاء الضوء على التحولات الروحية فى حياة إسماعيل وماعدا ذلك فكل شئ مجند لابراز تلك الحياة الروحية للبطل . ومعنى هذا أن الكاتب يهتم بالواقع النفسى ، الداخلى ، للبطل ولا يهتم بالواقع الخارجى إلا بقدر . ويرى بعض النقاد أن يحيى حقى حاول أن يسترشد بطريقة الفنان الفرنسى التعبيرى « ديجا » فى التعبير بالكتابة عن انفعالاته الداخلية ، وطريقة هذا الفنان الفرنسى أنه يستخدم سلسلة من الصور المتتالية يرسم بها نفس المرئيات . ولكن فى كل صورة ترى الانفعال الداخلى متغيراً بعض الشئ وتكون الصور جميعها كالمعرض الشامل لكل التغيرات (٣٣) . وبالفعل يمكن ملاحظة ذلك والاكتفاء بمشهد واحد ـ ميدان السيدة زينب ـ عرضه الكاتب لنا من خلال وجدان البطل فى ثلاث انطباعات :

فى الانطباع الأول نرى الميدان من خلال عين البطل . وفيه نرى الرؤية الداخلية لإسماعيل تتفق مع الواقع الخارجى لمجتمعه . فثمة حالة من الاستاتيكية و « الحيادية بينهما . . بين الذات والموضوع ، كل مجهوداته أن يرى ويسمع ويسجل ، ينظر ولا ينفعل . فحياته لم تخرج عن هذا الميدان » .

أما الانطباع الثانى فنرى الميدان بعد سبع سنوات غاب فيها إسماعيل ثم عاد بعد أن حصل على درجته العلمية فى الطب وهنا تستمر الرؤية الداخلية للبطل وإن تغير الانطباع كما اتضح ذلك من موقف اسماعيل . إذ تحول الميـــدان بوضعه الإستاتيكى إلى « مثير » . وبدت استجابة البطل لهذا « المثير » فى تغير نظرته إلى الميدان وأهله . لم تعد نظرته محايدة ، وإنما أصبحت نظرة واعية متفحصة ، متبصرة ، نظرة متمردة : ترى الدين خرافة ، لا تؤمن إلا بالعلم ، نظرته إلى أهل الميدان اتسمت بالاحتقار

(٣٣) خير وهبي : يحيى حقى فى الستين ، مجلة الكاتب ، فبراير ١٩٦٥ ، ص ١٤٤ .

والاستعلاء . كل ذلك يفعل تغير مشاعره الداخلية وتطور تفكيره نتيجة إقامته فى الخارج .

أما الانطباع الثالث فعندما هام على وجهه بعد أن فشل فى علاج « فاطمة النبوية » . عاد ينظر إلى الميدان بنظرة جديدة مغايرة للنظرة السابقة وذلك استجابة لما طرأ على تفكيره من تغير ، فقد أقام نوعاً من التوفيق بين عقله وقلبه ، بين العلم والإيمان ، عاد إلى الميدان بإيمان يسانده العلم ، إلى الناس البسطاء بعد أن أحبهم ؛ وكان حبه لهم فى هذه المرة حباً متبصراً واعياً نابعاً من فهمه لظروفهم الموضوعية أو بتعبير أدق الظروف مجتمعهم الموضوعية وما يترتب عليها من مشاكل . فضلا عن صحوة روحية جعلته يتعاطف معهم تعاطفاً صادقاً . لذا فقد جاء الرسم الخارجى لشخصية البطل فى أواخر أيامه متفقاً مع التطور الروحى له . ويشى ذلك بأن عالمه فى تلك المرحلة من خريف عمره سادها الرضى والقبول الروحانيين وانعكاساً على ظاهره فجعله يقبل على الحياة ومسراتها . وهنا يتراجع الواقع المادى ليتيح للواقع النفسى أن يعبر عن رأى إسماعيل فيما يحيط به .

وهذا المنحنى الروحى لاسماعيل خلق منه شخصية مستديرة Round متطورة روحياً فكل تغير يحدث له ، نراه منعكساً على شاشة الواقع فى صورة مشاهد تعبر عن اللحظة الروحية التى يحياها . ولقد بدت لمسات الروائى فى التركيز على التحولات الروحيـــة العميقة التى هزت وجدان البطل وساعدت على تعميق شخصيته الإنسانية بحيث أننا شعرنا وكأنها أزمتنا نحن . ففى الوقت الذى كان اسماعيل يعل كؤوس الهوى ويأكل البفتيك فى اسكتلندا لم يتخلف والده عن المواظبة فى أداء مصروفات اسماعيل المالية . نسمع الراوى — وكأنه الكورس ينشد — « اقبل يا اسماعيل فإنا إليك مشتاقون . لم نرك منذ سبع سنوات مرت كأنها دهور . كانت رسائلك المتوالية ، ثم المتراخية ؛ لا تنفع فى أرواء غلتنا . أقبل إلينا قدوم العافية والغيث . وخذ مكانك فى الأسرة ، فسترها كالآلة وقفت بل صدئت لأن

محركها قد انتزع منها . آه كم بذلت هذه الأسرة لك . فهل تدرى ؟ »(٣٤)
و « هذا التعليق يخدم جملة أغراض . . إنه أولا يعطينا معلومات عن علاقة اسماعيل بأسرته أثناء غربته . . ثم حماس للكتابة للأسرة لا يلبث أن يفتر ثم يصف التعليق اللهفة الشديدة التى تشعر بها الأسرة كلها أثناء غياب الابن الوحيد ، ويؤكد عظم مكانه الابن عند الأسرة وفداحة التضحية التى قامت بها لتمكينه من إتمام تعليمه . وهذا كله يثير عطفنا على الأسرة ويجعل فجيعتها التالية فى الابن حينما يثور عليها وينكرها أفعل فى نفوسنا وأفدح وقعاً »(٣٥) كل ذلك مجتمعاً يساهم فى تعميق شخصية البطل الإنسانية ويزيد من تعاطفنا معه وإحساسنا بوجودها الإنسانى . هذه الشخصية النامية تمثل — على حد تعبير فورستر — اتساع الحياة داخل صفحات كتاب .

أما باقى الشخصيات فهى مسطحة flat ، الأب ، الأم ، فاطمة النبوية .

إن رواية قنديل أم هاشم من أهم الأعمال الروائية الرائدة التى عبرت عن أزمة جيل حمل صليبه على كتفيه ومضى إلى أوربا لينهل من مورد العلم والحضارة الغربية ثم عاد فوجد بلده ما زال الاستعمار يجثم على صدرها ووجد بلده تعانى من التبعية السياسية والاقتصادية وتعانى من التخلف الاجتماعى ، وانعدام الشخصية الدولية ، وجد المثقفون بلادهم فى حالة من الجمود والموات يخيب أمل كل مكافح ويشيع اليأس فى فؤاد كل محب لبلده فعلى حد تعبير إسماعيل فإن أبشع ما تصوره أهون مما رآه : وليس من شك فى أن اسماعيل بطل الرواية يبشر بميلاد البطل الإيجابى فى الرواية العربية المعاصرة فى مصر .

---

(٣٤) الرواية : ص ٢٦ .

(٣٥) صفحة ٩٥ من ترجمة كمال عياد جاد ، دار الكرنك ١٩٦٠ ، وقد ارتضيت الاعتماد على هذه الترجمة بعد مراجعة النص الأصلى الانجليزى .

مليم الأكبر (*)

« ما أنا إلا صريع الجيل الذى ولدت فيه
أنتم تشخصون الكلام إن أردتم السعادة ، أما أنا
فانظر إلى أسفل البحث عنها . . . هذا هو حال
إلى أسفل » .

خالد ، الرواية (٢٣٧)

وأخيراً قطع سعد الدين حبل الصمت فهز رأسه وقال وهو يتنهد :

ـ ايه يا « هاملت » مصر الموزع اللب أبدا . . :

فرمقه خالد فى وجوم ثم قال :

بل ايه يا مصر الغارسة رأسها فى الرمال » .

هذا ما وصل إليه خالد من رحلة البحث التى قام بها فى مجتمعه . لكنه طريق طويل ذلك الذى قطعه خالد حتى وصل إلى ما وصل إليه هاملت الذى افتقد التوازن المنشود بين العالم الخاص والعالم الخارجى ، الضائع والغريب عن ذاته ومجتمعه الحائر بين الفكر والواقع . خالد الباحث عن العدالة الاجتماعية ، انتهى به الأمر إلى أن ينظر إلى أسفل ، إلى الواقع الهابط لمجتمعه ثم يكيف نفسه معه .

ـ ١ ـ

أطال خالد التأمل فى أمر نفسه وقد أسلمه ذلك إلى الإحساس بأنه نصف إنسان فالآدمى حيوان ناطق وحيوان اجتماعى فى آن . لكنه يحس أن الحياة قد لفظته كالنواة ، فلم يعد فرداً فى مجتمع ، ولكنه فرد فى معزل . كيف تم هذا ؟.. وكلما عاوده السؤال ألقى عبء الخطأ على المقادير ، واعتقد

(*) ظهرت الرواية لأول مرة فى نوفمبر ١٩٤٤ ـ الناشر لجنة النشر للجامعيين ، مكتبة مصر ومطبعتها .

إنها ظلمته أشد الظلم ، إلا أنه أدرك أخيراً أن اتهامه للمقادير ليس سوى الغبار الذى تثيره النفس لتستر به ضعفها ، ولتسوغ خطأها إنه يعلم أن الطبيعة لا تنتج آثارها إلا بالمفاعلة والتبادل فى نطاق دائرة مشئومة . فإن كان المجتمع قد نبذه ، فلأنه هو الآخر قد طلقه ، وخرج على نظمه وأوضاعه . أما من يرضى بهذه النظم والأوضاع ، فإن المجتمع يفتح له صدره ، ويفسح له سبل العيش . وبقدر قبول هذه النظم والأوضاع ، يكون نجاح المرء وتقدمه فإن أقرت أوضاع مجتمع ما الرشوة والكذب والتزوير ، فلا يمكن أن ينجح امرؤ فى هذا المجتمع عينه ، إلا إذا استعان بهذه الوسائل فإن ثار عليها ثار المجتمع عليه وهنا يشعر خالد أنه فى مأزق حرج ليس أمامه إلا أن يسلك أحد طريقين : أما أن يعدل المجتمع ويسويه بالطريقة التى يهوى — وهذا محال . وإما أن يعيد صياغة نفسه بالطريقة التى ترضى المجتمع ، وهذا أشد استحالة ، لأنه لا يزال حدثا يافعا ، يعيش فى عالم من الألفاظ والمعانى (١) فأى الطريقين سلك ؟ ؟ . . قبل أن نجيب على السؤال علينا أن نصحب البطل فى رحلة البحث التى قام بها فى المجتمع ليبحث عن طريقه الذى مر بمراحل بدأت بالانتماء الساذج ثم الاغتراب ثم أخيرا العيش فى المجتمع بالطريقة التى يرضاها المجتمع بمعنى النزول إلى قاع المجتمع وليس الارتفاع به أو المحاولة الشريفة على الأقل مثلما فعل اسماعيل فى القنديل . العودة هنا — كما سنرى — فيها شىء غير قليل من الانتهازية .

بداية الشعور بالاغتراب :

إن خالد يطرح على نفسه هذا السؤال : أكان هو البادىء بالعدوان أم المجتمع ؟ « لقد كان قبل سفره إلى أوربا يعيش سعيداً بين أسرته ، ويشارك أفرادها فى حياتهم المنزلية والاجتماعية . إنه يذكر كيف كانوا يتضاحكون ويتنادرون كلما جمعتهم مائدة الطعام وكيف كان يصاحب والدته وأخاه فى زياراتهم للأقارب والأصدقاء . ولما أن أتم دراسته الثانوية

(١) الرواية : ص ١٣٧ — ١٣٨ .

أرسله والده إلى جامعة عريقة بانجلترا . وهناك مضت السنة الأولى بسلام كان العالم فى ناظريه لا يزال تلك الفئة القليلة من الأقارب والأصدقاء. وكان لايشغله من المسائل سوى التفكير فى أم غريزته الجنسية ، والعمل على النجاح والفوز »(٢) وخالد فى هذه المرحلة مازال يعيش فى عالمه الخاص فليس ثم تنافر مع البيئة .

وفى العطلة الصيفية ، غادر انجلترا فى رحلة طاف فى خلالها بمعظم دول أوربا . فلما عاد إلى جامعته بدأ عقله يدور حول ما استوعبه من تجارب واحساسات . ولقد صاحب هذا الجهد الفكرى العنيف أزمات نفسية ، كثيراً ماأبعدت النوم عن جفنيه ليالى متتابعة كان يحس بأن بين جنبيه بركانا يضطرم ، وان هذا البركان يوشك أن ينفجر ، ولكنه لم يكن يدرى إلى أى شاطئ سيقذف به حين تأزف ساعة الانفجار . وفى تلك الأثناء بدأ تفكير خالد ينتقل من الخاص إلى العام . لم يعد عالمه أفراداً متميزين ، ولكن طبقات فى مجتمع . أصبح ينظر إلى الغنى والفقر — لاكنزوات دهر غاشم فهو يبذل أيهما لمن يشاء بغير ضابط كما يظن — وإنما هى النتيجة الحتمية لتفاعل الأوضاع الاقتصادية والنظم السياسية . هنا أحس خالد بنزوع شديد إلى القراءة ... إنه يريد الوصول إلى أعماق الحقائق المادية التى تسيطر عليها القوانين الطبيعية ، والتى يمكن تتبع أصولها وتحديد نتائجها بالاستقراء العلمى »(٣) .

مرت سنوات ثلاث ، وخالد يقرأ ويستمع ويتأمل . ثم حصل على أجازته العلمية فعاد إلى مصر ، ولكن الذى عاد اليها كان شخصا لايمت بصلة ما إلى ذلك الفتى اليافع الخجول الذى غادرها منذ بضع سنين . ولو خير حينئذ بين الحالين لاختار حاله الأول . كان سعيداً فى حياته ، قنوعا بالبيئة التى يعيش فيها . ولكنه عاد شابا حزينا حائراً فقد الثقة بمثله الأولى ولم يستطع أن يحل محلها مثلا أخرى تضارعها فى قوتها وأبديتها .

---

(٢) الرواية : ص ١٣٨ .

(٣) الرواية : ص ١٣٨ — ١٣٩ .

وما حدث لاسماعيل بعد عودته وثورته على أسرته حدث لخالد . ثار على كل أوضاع المجتمع . بدأ ثورته على مجتمعه الصغير فتبرم بأبيه وتصرفاته ولم يعد ينظر إليه إلا بعين السخط التى لا تبدى إلا المساوىء . ثم امتدت السنة ثورته لتلتقف ما فى طريقها ، امتدت إلى أخيه الأكبر ، ثم والدته العجوز .

وواضح أن التناول العقلى الذى يتناول به عادل كامل موضوعه يجعل بطله يحيا حياة هى أقرب إلى العقل منها العاطفة . ومن ثم فالمؤلف يختفى بأفكار خالد اختفاء كبيرا ، ويشرح تفاصيل الأزمة الفكرية والروحية التى اكتوى بنارها .

— ٢ —

إدرك خالد — وهو فى حيرته بين القول والعمل ، بين الفكر والواقع — أن المجتمع متعفن آسن ، لابد من تغييره من أساسه . مجتمع يساعد على التبطل ولا يشجع العمل الجاد ، بل يدفع بأبنائه — على كافة المستويات — إلى تلك الحياة الهامشية . « بندق » رفيق مليم ، وأبوه بائع المخدرات الذى دفع بإبنه إلى ان يسلك الطريق الذى سار عليه ، يجلب المتع والسرور . وخورشيد باشا البورجوازى العتيق الذى دفع بأبنه إلى البطالة المقنعة عن طريق الوظيفة التى هيأها له بوزارة الخارجية . طلب فى الوزارة إن يطلعوه على العمل المطلوب منه فماذا سمع ؟ أى عمل ياشاطر ؟ أن أمثالك ممن يأتوننا بين الفينة والفينة ، غير مفروض فيهم أن يعملوا شيئا »(٤) وخرج من تجربته فى العمل بوزارة الخارجية بنتيجة هى ان النفاق الاجتماعى هو أساس العلاقات فى مجتمعه عرف كيف يتظاهر المنافقون بالعمل . وبدأ يعتريه الشك فى مقدرته على أن يكون « رجل العمل » الذى يدور فى وجدانه . لم يشفه جسد المرأة ولا اللفائف الفاخرة من الغربة التى يعانيها . قال له خورشيد باشا وهو يحاوره بشأن آرائه الاجتماعية : « — حقا لقد صدعت رأسى أيها الغلام بحديث أرائك

(٤) الرواية : ص ١٤٨ .

الفريدة . فهل تعتقد حقا أن فى وسعك أن تبذل شيئا ؟ أن تقوم بعمل حقيقى ذى قيمة ؟ أجبنى أيها الصبى المتعطل . . . إربد محيا الفتى وانفجر قائلا : — بلاجدال » (٥) لكن لم يستطع خالد أن يعمل شيئا . ولم يفلح عندما حاول أن يبرئ « مليم » من قضية ملفقة ؛ ولكن خورشيد باشا يحاصره بمنطقه ويسد أمامه المنافذ . يقول له : « — ما أغباك ؛ ان هذه القشرة الظاهرة التى تغلف مخك ، والتى تحسبها ذكاء ، إنما تستر فى الواقع غباوة مجسمة . إن المجتمع أيها الشاطر لا يقوم على أفراد العامة ؛ ولكن على الأسر الكبيرة والأسرة الكبيرة عروش صغيرة تبذل الأرواح من أجل بقائها والمحافظة على شرفها . لقد جئت تحدثنى باعتبارى قاضيا عادلا ، وأنا بهذا الاعتبار أرى أن العدالة الحقه — لا الظاهرة — العدالة التى لا تكفل سلامة المجتمع وتقدمه هى فى التجاوز عن مليم فى سبيل المحافظة على شرف أسرة كبيرة كأسرتى » (٦) وهذا المفهوم عن المجتمع الذى يؤمن به الباشا — هو فى عمق معناه يعبر عن مفهوم البوجوازية الزراعية المصرية والذى صاغه فليسوفها لطفى السيد فى حديثه عن نظرية الأمة . فقد اعتبر أن الأمة لاتتكون من الأفراد وإنما تتكون من العائلات والأعيان ، هم رؤساء الأمة الطبيعيون لأنهم رؤساء العائلات « لقد خذله منطق الباشا — منطق العائلات والأسر الكبيرة — ولم يفلح دفاعه عن موقفه وإيمانه بفكرته المادية عن تطور المجتمع من العهد الاقطاعى إلى عصر الحرية والمساواة . كل ذلك فى نظر الباشا والمجتمع دخان فى الهواء . وإن محاولات خالد لإنقاذ مليم من السجن محاولات هزيلة كادت توقعه هو نفسه فى قبضة الاتهام .

* * *

رحل خالد من بيت أبيه وأقام مع صديق له يقطن فى ضاحية بأطراف القاهرة . بدأ يفكر فى مستقبله . « ماذا يعمل فى غده ؟ إنه سيترك الوظيفة التى الحقه بها والده . وهذا لا شك فيه . فكيف يعيش إذن ؟ انه لايستطيع

(٥) الرواية : ص ١٥٢ .
(٦) الرواية : ص ١٧٨ .

أن يزاول أى عمل من الأعمال الجدية التى تطعم الخبز . . هذا أيضا لاشك فيه ... فأعمال أكل الخبز جميعاً أعمال آلية تافهة لا تفيد فكره فائدة ما ، ولكنها قد تضر نماءة الروحى أبلغ الضرر أما أعمال الفكر فكفيله بتشريد مزاوليها وتجويعهم ، كما أنها تحلهم أدنى مرتبة من حيث احترام الناس لهم »(٧) هنا تظهر حقيقة شخصية البطل المغرقة فى المثالية وتهويمات الخيال . فهو كأبناء البورجوازية يأنفون من العمل البدوى أو العمل الحر لأنهم يرغبون فى وظيفة محترمة ، إنه من ذرى الياقات البيضاء فماذا تتوقع منه ؟ .

يقدم لنا عادل كامل صورة دقيقة لموقفه ـ خالد ـ فى هذه الليلة التى بات فيها يفكر فى مستقبله يقول :

« ظل يعاود هذه الأفكار وتعاوده إلى أن انبلج الصباح عن فجر وردى. ولكنه حين وقف يرمقه من الشرفة بدأ له كعين قرحتها الدموع . ولقد شاهد عينيه فى المرآة قبل أن يغادر مخدعه فوجد أن هذا الفجر إن هو إلا صورتها معكوسة فى مرآة الطبيعة » (٨) فى هذا المشهد نرى الواقع النفسى للبطل متفقاً مع الواقع الخارجى — من وجهة نظره . نرى موقف خالد الرومانسى الأصيل ، حيث تنبع رؤيته من داخله هو ويعكس ما بذاته على الواقع الخارجى . هذ البطل الذى يرى قرص الشمس عيناً قرحتها الدموع الساهرة بكاء على مستقبله الضائع يشارك البدو حياتهم « ما أمتع حياة البدو المليئة بمغامرات الطعان والنزال وضرب الرصاص . أليس هو فارساً مجاهداً مثلهم ؟ لا غرو أنه كان من المبرزين فى لعبة السيف بين طلبة الجامعة الإنجليزية التى كان بها ، ثم إنه يجيد ركوب الخيل هذه الدلائل جميعها تومئ إلى أن بين جنبيه طبيعة بدوية أصيلة ، وإن كان المجتمع الفاسد قد أعمى بصره فلم

---

(٧) الرواية : ص ١٨٥ .

(٨) الرواية : ص ١٨٦ .

يدرك هذه الطبيعة إلا الساعة »(٩) ويقيم فى كوخ ويلبس العباءة والعقال « جاء سلوكه رومانتيكياً ، رغم أنه كان يحتقر الرومانتيكية مغرقاً فى الخيال رغم أنه دائماً ما كان يحتقر الخيال . قال له صاحبه وهو يحاوره » — لقد لحظت أمراً غريباً لاحظت أن الذين يعتنقون أخيلة الشعراء نراهم فى سلوكهم واقعيين بل ماديين فى كثير من الأحيان . فنقول أناس ضعف إيمانهم . أما أنتم فحالكم الأعجب إنكم لا تعتقدون إلا فى المعادلات الجبرية ومع ذلك فإن سلوككم يعيد إلى الذهن رومانتيكية القرن الثامن عشر»(١٠) هذه الملاحظة تشى بلب التناقض الذى يحياه خالد ، التناقض بين الفكر والواقع . . . ولو أتيح لأحد أن يكشف عن رأسه لوجد فيها حجرتين : إحداهما يتربع فيها القرن العشرون بآلاته ومعداته ، والثانية يمرح فيها القرن الثامن عشر وسط غابة يخترقها جدول » (١١) .

كان خالد موزع اللب بين القيم التى يمثلها الجدول والغابة ، قيم القرن الثامن عشر الرومانسية بتحررها من القيود وانطلاقها ، وبين عقله الذى ظل حبيساً للمعادلات والآلات هذا العقل الذى قيد نفسه بالفلسفة الميكانيكية للحياة والمفهوم الميكانيكى الذى يلغى إرادة الإنسان ويضع مصيره تحت رحمة الصدفة التى لادافع لها ولا توقع . ولم يستطع خالد أن يحل هذه الثنائية الثقيلة . فلا هو عاش مع الوجه الذى بدا له من القرن العشرين ولا هو مالك أن يعيش مع الجدول والغاب » (١٢) .

يعود خالد من هذه التجربة — الإقامة فى الكوخ — أكثر غربة مما كان . ويذهب ليقيم مع عمته . وهناك يجد « نعمت إبنة عمته » . كانت الذراع البضة الناصعة التى فتنته أول ما رآها هى كل ما تملك صاحبتها من عناصر

---

(٩) الرواية : ص ١٨٦ .

(١٠) الرواية : ص ١٨٨ .

(١١) الرواية : ص ٢١٨ .

(١٢) د. على الراعى ، المرجع السابق ، ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

الفتنة . جسد رطب أبلج . هذا هو كل شيء . أما الفتاة التى تقطن هذا الجسد فقد كانت مخلوقاً يبعث على الملل ، ولا يدرى من أمور الدنيا إلا ما لا يجب أن يدرى . ثم إن نعمت ظلت طيلة شبابها حبيسة بين جدران المنزل الضيق ، فكان خالد أول من عاشرت من الرجال ، ولهذا تدفقت عليه كالطوفان ، وأحس خالد فى أول مرة بالدفء . . . ولكنه بعد ذلك لم يكن يتشوق إليها حتى باعتبارها أنثى . واستحالت الذراع البضة الجميلة حية باردة يقشعر جسده من ملامستها » (١٣) . ولقد جسدت نعمت غربته بتهالكها عليه . شعر خالد أنها لم تشبع المثقف الفنان الذى يحيا فى أعماقه . ومن ثم هفت نفسه إلى هانيا . أعرض عن جسد نعمت وسعى إلى « هانيا » التى اكتشف فيها روحاً غريباً تآلفت مع روحه المعذبة الغريبة . وتبددت طاقته بين « ثنائية الروح والجسد » فلا هو عاش مع نعمت ولا هو أفلح فى أن يحيا مع هانيا حياة الفن والثقافة والروح » (١٤) .

* * *

شعر خالد أنه يصدد أزمة روحية . « كان ذهنه تتنازعه أفكار الحياة والموت فلا يعى لها معنى خاصاً بل يتركها تغيب عن باله ليحل غيرها محلها . إن انقباض صدره لم يفارقه لحظة واحدة . ولكنه كان يفكر فيه بدون اهتمام أو مبالاة كأن هذه الأزمة تخص شخصاً آخر . لم يكن فى حال يسمح له بالاهتمام بشؤون الآخرين » (١٥) .

ويلتقى بـ « سليم الذى يقدمه إلى جماعة القلعة » ، وينضم خالد إلى هذه الجماعة بعد أن ظن أن أحلامه المثالية ورغبته الملحة فى الإصلاح ، ستتحقق فى هذه الجماعة العجيبة المتنافرة . غير أن « خالد » كان ينظر إلى المناوشات اللفظية على أنها حقائق سامية تستدعى العمل على تحقيقها ، فقد كانت له طبيعة صادقة مخلصة ، لا تفرق بين الكلام والاعتقاد . فهو

---

(١٣) الرواية : ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

(١٤) د. على الراعى : المرجع السابق ، ص ٢٣١ .

(١٥) الرواية : ص ٢٢٠ .

يحس الأفكار بوجدانه على حين أنهم يتخذون منها أداة لإدارة ألسنتهم وسماع أصواتهم . ولقد خيل إليه أن الطريق سهل والقطوف دانية . فما من أحد يمكن أن يعترض على الإصلاح ، ولا يمكن للظلم أن يقف فى وجه العدالة . ووجد فيه أحد رفاق القلعة — عطا الله — ضالته ، فظل يملأ أسماعه بوجوب المبادرة إلى العمل إذا الأمر يحتاج إلى عمل حاسم سريع ...

وفى ذات ليلة احتدم النقاش بين سكان القلعة فقال نصيف :

— إن الأمر صعب ، والطريق شاق ، والغاية بعيدة كل البعد .

فأحتج خالد قائلا :

— وما فائدة أن نظل نتكلم فيما بيننا كل ليلة ؟ يجب أن يرتفع صوتنا إلى الخارج عاليا حتى يصل إلى أسماع الحكومة فتأخذ بالإصلاح الذى ننادى به .

وضحكت هانيا فى سخرية وقالت :

— إننا هنا لا نقدر إلا على الكلام يا خالد بت . أما رجل العمل والحزم فلم يخلق بيننا بعد . وهو لو وجد لما احتاج إلى الكلام إطلاقا ، لكثرة ما سيزحم بين يديه من أعمال .

وتنهدت الفتاة ثم أضافت قائلة :

— أين هو ذلك الرجل ليهدم هذه القلعة من أساسها » (١٦) .

تلك هى الكلمات التى فاهت بها معبودته والتى ظنها موجهة إليه وحده : « أين هو ذلك الرجل » . عليه أن يثبت لها أنه ذلك الرجل الذى تبحث عنه ، وأنه من طينة غير طينة سكان القلعة . فإن كان يريد أن يكون جديرا بحبها . فعليه أن يسمو إلى آفاق مثلها . عندئذ يستطيع أن يحظى بإعجابها فإلى العمل إذن » (١٧) .

---

(١٦) الرواية : ص ٢٦٣ .

(١٧) الرواية : ص ٢٦٦ .

قرر خالد أن ينفرد بالعمل الإيجابى فكتب منشوراً ثوريا ، وخرج متنكرا . ودخل فى أحد المقاهى الشعبية لتوزيعه . ومضى يخطب فى الحاضرين بكلام لايفقهون معناه . لم يتعلم من الحكمة التى تقول خاطبوا الناس على قدر عقولهم ولاعجب فى هذا فخالد لم يؤت القدرة على معالجة الأمور معالجة موضوعية بل يعالج القضايا حسبما يمليه عليه مزاجه الخاص — وهو مزاج منحرف — «سمعوه يقول أن الفلاح يأكل المش ويشرب من الطين» فرد عليه أحدهم ضاحكا :

— وهل تريد أن يأكل بقلاوة ويشرب تمر هندى ؟

وقال ان العامل فريسة للأمراض وآفته الجهل . فرد عليه آخر قائلا :

— وما شأنك أنت ؟ ...يقول لهم قولوا معى « يحيا الشعب » فيصيح أحدهم الواقفين ساخراً :

— ياليل ياليل ... ماهذه المصائب التى تنزل على رؤوس الخلق فى آخر الليل اقذفوا به إلى الخارج » (١٨) . وفجأة دهم الشرطة المقهى ، وقبضوا على خالد ومعه المنشورات . وعندما وصل إلى المخفر وجد والده وعلى مقربة منه عطا الله . لم يعد ثمة شك فى انه « قع فى فخ نصبه له والده بمعاونة جاسوسه عطاالله »

ويقول خالد لأحد النزلاء فى السجن :

« — إن الذى يحزننى ياعماه هو أن الذين اضطهدونى وسخروا منى ومثلوا بى أشنع تمثيل هم هؤلاء الفقراء الذين كنت على استعداد لأن أضحى بآخر قطرة من دمى فى سبيل إسعادهم » فيرد عليه الرجل : بقوله « ... إن الفقراء يسوؤهم أن يقال لهم إنهم فقراء ، ويكرهون من يشعرهم برقة حالهم ، لأنهم فى حقيقة الأمر لايشعرون بوجود الأغنياء . إن لنا يابنى عالما مستكملا كل من فيه من الفقراء — فما اهتمامنا بالأغنياء ؟ ليكن من أمرهم ما يكون فإننا لا نحس بهم فى الواقع .

---

(١٨) الرواية : ص ٢٦٩ .

لم يكن خالد قد سمع مثل هذا الكلام من قبل ، فظل يتدبره برهة ثم قال :

— أصبت يا أبتاه . وإن للأغنياء أيضا عالمهم الخاص الذى لا وجود فيه للفقراء وكل من الفئتين تسير فى طريقها متجاهلة الأخرى حتى لأخشى أنهما لن تلتقيا أبدا ... »(١٩) .

ومن عجب أن يسلم خالد بقول الرجل عن عالم الفقراء المنبت الصلة بعالم الأغنياء . وكان من المتوقع وقد نشأ خالد فى أحضان المجتمع البورجوازى العتيق واطلع على حياة الفقراء أن تكون الصورة المقارنة أكثر حدة وأبعد عمقا فى الإحساس بالوعى الاجتماعى . لكنه بدلا من تعميق وعيه الاجتماعى عن طريق فهمه لطبيعة القوى المتحكمة فى البناء الاجتماعى اكتفى بالقول . وللأغنياء . أيضاً عالمهم الخاص» وإذا كان الوضع الاجتماعى للإنسان هو مصدر آلامه وآماله — وهو بالتأكيد كذلك — فإنه لن يكتشف حقيقة هذا الوضع إلا عن طريق العلاقات الاجتماعية المرتبطة بالقوى المنتجة فى المجتمع التى تخلق من جانبها نوعية المبادىء والأفكار والمراتب باختصار بأسلوب الحياة »(٢٠) كان من المتوقع أن يكتشف خالد نظرية العلاقات خاصة بعد دراساته المتعمقة فى الاجتماع والبناء الاجتماعى . ولكن هذا القول من جانب خالد جاء إرهاصا بنهايته كبطل ثورى — والغريب أن البطل الثورى دائماً يكون مشلول الإرادة ، عاجزاً عن الفعل — وعودته إلى طبقة الأغنياء . فعل ما تفعله النعامة عندما تخفى وجهها فى الرمال وهى تتصور أن الصياد لن يراها .

ونحن لم نفجع فى خالد عندما غير موقفه بين يوم وليلة . فهو لم يبق فى السجن إلا سواد الليل . « والتهمة التى ألقى القبض عليه من أجلها ، من الممكن أن تصور شكل تهمة عرضية وخيمة العواقب ، ومن الممكن

(١٩) الرواية : ص ٢٧٢ .

(٢٠) راجع الكلام عن الطبيعة البشرية من هذا البحث .

التغاضى عن ملابساتها فتصبح لا وجود لها أصلا »(٢١) . وأطلعه والده على كلا الوجهين ، وأوضح له أن بوسعه توجيه التحقيق إلى أيهما يشاء . وكان على خالد أن يتخذ موقفاً محدداً . « وكان ثمن تبرئته من التهمة هو أن ينزل عن جميع القضايا التى كانت بينهما ، وأن يدين بالطاعة لأبيه ، فدفع خالد الثمن.» . باع نفسه وتخلى عن مبادئه .

أصبح خالد الفتى العاق مطيعاً لوالده ما دامت جيوبه مفعمة بالنقود ويحظى باحترام المجتمع . يستسلم « خالد » فى يأس مقيت ويمضى فى تبرير فشله — والتبرير مطية العاجز — « .. ما أنا إلا صريع الجهل الذى ولدت فيه » وهو يقول لهانيا « إنك لن تجدى فرداً واحداً يعى أحوال دنياه ، ويستطيع أن يكون سعيداً فى الوقت نفسه »(٢٢) إنه هنا يكتشف حقيقة الوضع الفردى للمثقف فى مجتمعه . لكن السؤال الذى نطرحه على خالد : هو ما الدور الذى قمت به لتقضى على هذه الغربة الموجودة بالفعل والتى يشعر بها كل مثقف ينتمى بصفة خاصة إلى دول متخلفة أو نامية ؟ ! أقول ذلك وأنا أعلم أن غربة المثقف فى الدول المتقدمة نجمت عن ظروف مختلفة حضارياً عن غربة المثقفين فى الدول المتخلفة .

إن خالد لم يحاول أن يخلق تواصلا بينه وبين المجتمع مثلما فعل اسماعيل بل انفصل عن المجتمع . وليس من شك فى أن فى موقف خالد شيئاً من الانتهازية والنكوص عن تحمل المسؤولية . إنه جبان ، ألم يفر مرتين عندما أوشكت قوى الانتقام أن تمسك به ، مرة مع ملهم ، وأخرى بعد هزيمة المقهى . إنه غارق فى المثالية الزائفة التى تغفل طبيعة القوى الاجتماعية التى أراد أن يتصدى لمواجهتها . فضلا عن شعور بالاستعلاء على المجتمع ، مبالغة منه فى تقديره لذاته ، والتهوين من شأن الغير فى الوقت نفسه . كأنما يقول لنفسه إذا كنت وأنا البطل الفارس الثائر لم أفلح فى إصلاح شأن

---

(٢١) الرواية : ص ٢٧١ .

(٢٢) الرواية : ص ٢٨٥ .

المجتمع وتغيير الأوضاع الهابطة لأفراده فإن معنى ذلك أن الناس غير قابلين للإنقاذ . ومعنى هذا أنه – أى خالد – المنقذ الوحيد . ومخلص المجتمع من الإملاق الذى يحتوى حياته . فإذا ما خاب جهده ، فقد خاب سعى الآخرين . هكذا يتصور .

كانت هزيمة المقهى إرهاصا بالإنفصال التام بين خالد والمجتمع . وفى الوقت الذى تنازل اسماعيل فى القنديل عن الوسيلة من أجل المبدأ . وقبل مبدأ المماشاة والتوفيق بعد أن فهم الظروف الموضوعية لمجتمعه الموغل فى التخلف ، أعرض خالد ونأى بجانبه عن فهم طبيعة العلاقة التى تحكم أنساق البناء الاجتماعى . فالصمت هنا – رغم سلبيته إلا أنه موقف ذو دلالة تحمل معنى الاحتجاج – أفضل من الانحياز لمعسكر أعدائه ، فهنا الانهزامية بعينها . ولاريب أن الصمت وإن كان احتجاجاً سلبياً ومع انه سيقذف به إلى شاطىء بحر الغربة . رغم هذا فأشرف له أن يكون غريباً من أن ينحدر ويصبح انتهازياً . طوبى للغرباء الشرفاء . فى الوقت الذى ارتبط اسماعيل بالشعب وعاد إلى الأصل ، إلى الجذر ، ارتبط خالد بالطبقة البورجوازية الكبيرة فغدا نباتاً طحلبياً يطفو على السطح ، لكن بلا جذور .

والمتأمل فى البناء الروائى يرى مشهدين الأول نرى فيه، بندق رفيق مليم يستوقفه متسائلا :

« ما هذا ياملیم ؟

– إنها « عدة الشغل » .

– إذاهب لتحطيم باب ؟

– بل سأصلح بابا . إننى أعمل الآن فى مصنع عمى

– وماذا يشتغل هذا العم ، ياعم ، ياعم . . .

– نجار

فغر بندق فاه دهشة . وظل فاغراً فاه ساعة طويلة وهو يتمتم :

– نجار ! نجار ! أتصبح نجارا ؟ حقاً ؟ لا ، لا . . لا أصدق .

هز « مليم » كتفيه وأستأنف سيره وهو يقول :

— صدق أو لا تصدق فلست بمهتم

— وهل تظن أنك ستظل . . نجارا!

التفت « مليم » إلى صديقه وبريق الغضب يلمع فى عينيه ، ثم قال له مهدداً .

— ما للنجار ؟ ألا يعجبك ؟

فصدق بندق على قول صديقه ، وقال وهو يغالب الضحك

— صحيح ، ماللنجار ؟ . . ولكن هذا العمل الشريف . . . أقصد هل سيستمر طويلا ؟

فصاح « مليم » فى حماسة .

— بلا جدال .

أما بندق ، فقد قهقه ضاحكا وقال :

— سنرى . . .(٢٣) وفى المشهد الثانى نرى أحمد باشا خورشيد يخاطب إبنه فى صوت أملس :

— حقا لقد صدعت رأسى أيها الغلام بحديث أرائك الفريدة . فهل تعتقد حقاً أن فى وسعك أن تعمل شيئاً ؟ أن تقوم بعمل حقيقى ذى قيمة ؟ أجبنى أيها الصبى المتعطل . .

أربد محيا الفتى وانفجر قائلا : .

— بلا جدال

ثم التوى إلى مكتبه وأغلق من خلفه الباب ، ولو انتظر برهة لرأى بسمة السعادة الأثيمة ترسم على شفتى أحمد باشا خورشيد ولسمعه يغمغم قائلا :

— سنرى . . . »(٢٤)

---

(٢٣) الرواية : ص ١٣٥ — ١٣٦.

(٢٤) الرواية : ص ١٥٢ — ١٥٣.

فى هذين المشهدين يطرح عادل كامل قضية (العمل والتغيير) كما يمثلها مليم العامل وخالد الشاب المثقف .

ومحور الحديث عن العمل الشريف والتغيير . ولقد رسم المؤلف أبعاد شخصياته . فمليم ينطلق فى طريقه فى عزم وإصرار كأنه مقدم على فتح عكا. وتلك طريقته فى جميع مراحل حياته فى الرواية . أما خالد فيربد محياه ثم ينفجر وينثنى إلى حجرة المكتب و يغلق من خلفه الباب . وهذه طريقته وأسلوب حياته فى الرواية . انفعال وانفجار وتمرد أهوج ، ثم انزواء وانفصال . وخورشيد باشا داهية مراوغ يلذ له شعور القوة الذى يدفع بالقط إلى العبث بفريسته قبل التهامها . وهو يرقب فى سعادة أثيمة ما يختلج فى صدر والده من ثورة وما يلوح على وجهه من اضطراب وضيق تلك طبيعته وطريقته فى الحياة . وقد لخص لنا عادل كامل هذه الشخصية الطاغية بقوله « لم يكن يحتمل مراجعة أو اعتراضا . إنه يأمر وعلى الخلق أن يطيعوا . ولقد ركبه هذا الشعور حتى أصبح التفنن فى إذلال الناس وفى إشعارهم بحقارتهم شغله الشاغل » .

إن القوى الاجتماعية التى تصدى لها كلاهما على ثقة من عبث المحاولة فى الحصول على العمل الشريف وفى عقم ولا جدوى التغيير . وقد جعل المؤلف نهاية المشهدين واحدة . وكلا من بندق واحمد خورشيد يقولان فى ثقة واعتداد وفى نغمة مفعمة بالسخرية «سنرى» إنهما هنا يعبران عن مركز الثقل ، المجتمع ، وهنا يشى العمل الفنى بالمضمون الاجتماعى للرواية . إنها تقول إن المجتمع فاسد من أساسه ، لا فرق فى هذا بين طبقة وطبقة . ألم يدفع مجذوب حوش عيسى بابنه إلى التبطل عن طريق التسول وبيع المخدرات . ألم يهئ خورشيد باشا لابنه وظيفة فى وزارة الخارجية وهى فى حقيقتها بطالة مقنعة . وتعرض كلاهما لخيبة أمل كبرى ، يهتز على آثارها إيمانها بالمبادئ الشريفة . ويلقى كل منها السلاح . يقول خالد لمليم : « إن التبطل فى هذا المجتمع الفن أفضل من العمل . وإن كنت تبحث عن العمل الشريف فلن تجده . لم يعد شريفا فى عالمنا

هذا سوى التبطل . فإن حدثتك نفسك بأن تقوم بأى عمل من أى نوع فأنت لابد مقارف إثما . سترى كما رأيت . . لأنك أن أردت فائدة من وراء هذا العمل ، وهو المفروض – فلابد من أن تسرق واحدا من الناس إن كنت من طبقة الفقراء ، أو أن تسرق شعبا بأسره ، وهو ما أفعله أنا وما يفعله والدى

– ولكنى أؤدى عملا أتقاضى عليه أجرا فمن أسرق ؟

– مادام المجتمع قائما على نظام التنافس ، ومادام البلد يعج بالأيدى المتعطلة فأنت تسرق عمل غيرك » . صحيح أنه قال ذلك فى مرحلة صدامه مع أبيه وأثناء إصلاح مليم للنافذة ، لكن سيتأكد هذا القول كلاهما سيدع سلاحه . سيترك مليم . عدة الشغل ، ويطرح خالد أفكاره عن العدالة الاجتماعية . ينقلب خالد داعيـة الثورة إلى انتهازى جبان وسيتجر مليم بجمال هانيا ثم يعمل مع الجيش البريطانى ، ويصبح من أغنياء الحرب يدعى ، « محمد بك سلام » ونفرغ من قراءة الرواية ونحن نشعر بالأسى و التشاؤم ، فقوى الشر منتصرة على قوى الخير وفى الوقت نفسه نشعر باليأس والثورة ، فالمثاليون ضعاف متهافتون ، والأقوياء هم الأغنياء . إننا نشعر بالثورة على دعاة الثورة فهم أكثر جبنا من الأقوياء العتاة .

وقد كان المؤلف مقنعا عندما رسم الشخصيات التى تعبر عن القيم الآفلة فى مجتمع هابط فأظهر لنا الباشا بشخصيته القاسية الماكرة القاسية « فهو يطرد خدمه لأتفه الأسباب ، ثم يأكل حقوقهم بدلا من أن يكافئهم . وهو يقاضى مزارعيه المتخلفين عن أداء بقية من إيجار ، ويحجز على أموالهم ، ويبيع ممتلكاتهم ، حتى يجردهم من الرداء الذى يستترون به . وهو يطلق كلابه على من يدخل حديقته فيعقره ويمزق ثيابه . ولقد سمع أن لديه فى الضيعة جلاداً يشوى بسوطه ظهور المغضوب عليهم من الفلاحين وقد نجح المؤلف فى أن يقدمها لنا فى مواقف حية نابضة ، هيأ لنا عن طريقهـا أن نتحسس الشخصية . ونزنها ونقيسها بالنسبة لمن حولها ومن هنا شعرنا بالمقت والازدراء

تجاه شخصية الباشا . كذلك شخصية عمر شقيق خالد الأكبر الذى استباح لنفسه الزج ببرئ إلى السجن فى سبيل « هـــدية » يقدمها لعشيقته . وأيضا « نعمت » نموذج الأنوثة الطاغية ولا شئ سوى ذلك . أما الأم فلم تكن تلمح لها تأثيراً فى مجرى الأحداث ، هذه الشخصيات يثور عليها خالد وعلى قيمها . على أنها وإن كانت شخصيات مسطحة ، ثابتة إلا أنها شخصيات دالة ، قوية ، معبرة قامت بدورها المرسوم لها .

أما الشخصيات الثورية فهى وإن كانت متطورة نامية إلا أن سلوكهـــا الاجتماعى وموقفها من المجتمع وقضاياه ضاع فى أوهامها الفردية وأحلامها الطوباوية وانتهى بها الأمر إلى أن ظهرت فى صورة ضبابية متماوجة . وهذا ما لاحظه بعض النقاد من أن عادل كان يعمل فى جو متماوج مخلخل ، جو ضبابى فالحوادث والشخصيات تمر مرا متأرجحا متماوجا (٢٥) . ومن ثم جاءت شخصية البطل متأرجحة بين القول والفعل ، يبدد جهدها فى رحلة البحث التى قامت بها بين الفكر والواقع . ولعل مليم هو ضمير خالد المتجسد أمامه بنظرته العملية وكأنه يحقق ما يفتقر إليه خالد من الروح العملية . فبينما تترجم تنازلات مليم عن تحويل مبادئه إلى واقع ملموس ، وجـــاه وسلطان فاننا نرى «خالد» يترك نفسه فى خضم هذه التنازلات ، ويدعها تجرفه وتدفعه إلى البوار .

وإن تشابك العلاقة بينهما لا يخدم الشخصية كثيراً ولا يجعل حظهما من النمو والتطور المقنع موفوراً . فخيط المقارنة سرعان ما يتعقد ثم لا يلبث أن ينقطع لأن المقارنة تقوم بين شخصين ليس بينهما اختلاف جوهرى . فنحن لانستطيع أن نتعاطف كلية مع خالد وفى الوقت نفسه فإننا نتقزز من برود أعصاب مليم وانتهازيته شئ واحد يجعلنا نلتمس له ضعفه وتخاذله فإن هذا الضعف لم يأت بدافع من الرغبة الأصلية فى الخيانة وإنما جاء نتيجة لعجزه

---

(٢٥) سيد قطب : مليم الأكبر ، مجلة الرسالة ، عدد ٦٠ ، أول يناير ١٩٤٥ ، السنة الثالثة عشر ، صفحة ١٠ .

عن فهم طبيعة القوى الاجتماعية التى تصدى لها نحن نعطف عليه فقط «لعلمنا أنه روماتنتيكى ذاتى النظرة يرى العالم فى نفسه ولا يكاد يتصور أن مصير العالم شئ أكـبر بكثير من مصيره ومصير أمثاله من ذوى النوايا الطيبة والأفعال القبيحة »(٢٦) .

أما جماعة القلعة فهم نموذج لأوغاد المجتمع أولئك الذين يتشدقون بالمثل والقيم ويتمسحون بالمبادئ التقدمية وينادون بالتغيير على طريقتهم التى لاتخرج عن كلام فى الهواء . والكاتب يقيم علاقة مفارقة بين الآراء السامية التى يتبناها الأوغاد وبين الأوغاد أنفسهم الذين يحولون آراءهم إلى مطية لتحقيق أطماعهم ويتخذون من مليم قاطعا للطريق نيابة عنهم والذى يتجر بجمال هانيا نيابة عن الجماعة . والهدف واحد هو إخفاء اللصوصية والتبطل وحقارة النفس وراء واجهة براقة من المبادئ والآراء الشريفة . **فعادل كامل هنا يغمز أوغاد المجتمع وطفيليية والمرتزقة وليس المبادىء**

إن رواية عادل كامل « مليم الأكـبر » من الروايات الرائدة التى عالجت الصراع الطبقى . بواقعية نقدية كشفت عما يعانيه البناء الاجتماعى من تفسخ . وبن بطلها « خالد » ينتمى إلى جيل سابق عاش بين حضارتين مبلبل الفكر والوجدان ، حائراً بين الفكر والواقع . ومهما يكن من أمر فلم يذهب جهد هذا الجيل مع الريح بل أصبح جزءاً من تراثنا الفكرى والسياسى والاجتماعى .

---

(٢٦) د. على الراعى : المرجع السابق ، ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

ثلاثية نجيب(*)

لم أعد من سكان هذا الكوكب
غريب أنا وينبغى أن أحيا حياة الغرباء
كمال عبد الجواد قصر الشوق — ٣٥٥

بهذه الكلمات ناجى كمال نفسه . لكن ما الذى أورثه هذا الهم المقيم الذى بات يؤرقه وأحال حياته كآبة مقيته ؟

إن مشكلة كمال تعد فى جوهرها تجسيداً حياً نابضاً لمشكلة جيل مأزوم(١) . هذا الجيل الذى جاء ثمرة لمجتمع متخلف وكان عليه أن يحمل أمانة « التغيير » . فتذبذبت خطاه بين العبث وضرورة الفعل ، بين النظر والعمل . مشكلة كمال إذن ، هى المشكلة التى واجهت الكثيرين من المصريين المثقفين الذين استقبلوا شبابهم بعد ثورة ١٩١٩ وهم حيارى أين يجدون المثل الأعلى الذى يخلف ماتهدم من مثل أسلافهم العليا(٢) . لم يكن كمال

(*) انتهى نجيب محفوظ من كتابة الثلاثية فى أبريل ١٩٥٢ وبدأ نشرها فى الرسالة الجديدة فى عام ١٩٥٦/١٩٥٧

(١) تأمل نسيج الأزمة عند اسماعيل بطل « قنديل أم هاشم » ليحى حقى و« خالد » بطل « مليم الأكبر » لعادل كامل ، و« أديب » بطل « رواية أديب » لطه حسين و« محسن » بطل « عصفور من الشرق » لتوفيق الحكيم .

وقد أجاب نجيب محفوظ عن سؤال وجهه إليه « غالى شكرى » فى مجلة حوار عن الصلة بين كمال وبينه فقال : كمال يعكس أزمتى الفكرية ، وكانت أزمة جيل فيما أعتقد ، وإلا فما أكدت عليها بالقوة التى ظهرت بها » . حوار ، السنة الأولى ، العدد الثالث ، آذار — نيسان (مارس — أبريل ١٩٦٣) ، ص ٦٧ .

كما أجاب عن سؤال فى برنامج مع لأدباء فى البرنامج الثانى بإذاعة ج .ع .م يقولون إن كل شخصية روائية تعكس دائماً جزءاً من ذات الفنان . فأى أبطال رواياتك ترى فيه نفسك أكثر من غيره ؟ قال : « إن أزمة كمال العقلية فى الثلاثية كانت أزمة جيلنا كله ، وكنت أظنها خاصة بى حتى إدعاها لنفسه بعض الأصدقاء والنقاد أنفسهم » . نشر الحديث فى مجلة الآداب ، العدد السادس ، حزيران (يونيو سنة ١٩٦٠ ، السنة الثامنة) ، ص ١٩ .

(٢) الاب ج. جوميه : ثلاثية نجيب محفوظ ، نقل البحث إلى العربية د. نظمى لوقا مكتبة مصر ، يناير ١٩٥٩ ، ص ٦٩ .

، يمثل نفسة ، بل يمثل جيلا من المثقفين وعى رسالته ، وحدد دوره ، رسم لنفسه بداية الطريق . . . . . ولكن عوامل كثيرة ... قد عوقت خطوات هذا الجيل وأزمت وجوده ، لأنها كانت أضخم من قدرته النضالية على تغيير الأوضاع : فانتكاس الحركة الوطنية بعد موت سعد ، وتزييف الإرادة الجماعية بواسطة زعماء الأقليات طمعاً فى الحكم ، وتآمر القصر مع الاستعمار لخنق انتفاضات الشعب ، ورواسب الصراع الطبقى فى الوجود الإنسانى للبورجوازية الصغيرة ، وانهيار قيم الفكر والثقافة فى مجتمع سيطر عليه الانحلال الخلقى وخلا من تكافؤ الفرص . كل هذه القوى المدمرة هى التى وضعت بذور الأزمة النفسية لجيل المثقفين بعد ثورة ١٩١٩ (٣) .

— ١ —

وثمة احتكاك كان عصفا بعقل كمال ووجدانه وعمقا من المنحنى الفكرى والوجدانى للبطل : الاحتكاك الطبقى حيث عصف بحب كمال وسحق قلبه وخلف وراءه سخطاً على الطبقات الاجتماعية التى راح ضحيتها وإن لم ينكر وجودها أو يدع إلى إلغائها بدليل الاستعلاء الطبقى الذى كان يحس به هو نفسه تجاه صديقه « فؤاد » .

والاحتكاك الفكرى الذى عصف بإيمان كمال الدينى وبدله من بعد إيمانه شكا . أصبح شكاكاً فى كل شئ غريباً عن ذاته وعن المجتمع . غريباً فى منفاه الفكرى .

أزمة كمال العاطفية فى إطار الوعى الطبقى :

والأزمة العاطفية التى عصفت بقلب كمال وتركته حطاماً هى — على الأرجح — التى غيرت من نظرته لذاته وللعالم الخارجى (٤) . وسنرى أن

---

(٣) أنور المعداوى : ملحمة نجيب محفوظ الروائية ، مجلة الآداب ، أبريل ١٩٥٨ ، ص ٢١ .

(٤) قال نجيب محفوظ « إننى أعتقد أن كمال عبد الجواد الذى يلتمس مبررات عقلية بحت ما هو إلا صدى لمشكلته الاجتماعية . لقد كانت مثاليته نابعة من حبه ، ثم كان انهيار عقائده وكان ترديه فى الشك مترتباً على فشل ذلك الحب » . الفريد فرج ، نجيب محفوظ يتحدث عن فكره وشخصياته ، الهلال ، أول سبتمبر ١٩٦٥ ، ص ٣٨ .

الصراع العاطفى والشك الفلسفى الذى اكتوى بناره كمال إنما أثاره وتحكم فى مساره ونتائجه الظروف الاجتماعية والبيئية التى كان كمال ثمرة لها ، إذ توطدت صلات الصداقة بينه وبين حسين شداد أحد رفاقه فى المدرسة الثانوية . وهو من أسرة ثرية تعيش على الأسلوب الأوربى الذى لايعرف الحريم فيرى كمال فى أخت صديقه وزميله عالماً جديداً يختلف كل الاختلاف عن عالم أسرته . يرى فيها نموذجاً للمستوى المعيشى الرفيع والجمال الارستقراطى والثقافة الفرنسية كصدى لافتقار بيئته هو أسلوب الحياة المتميز . ومن ثم ، تفتح قلبه على طراز جديد من العواطف والانفعالات يغاير حياة الحى العتيق ورفاقه أمثال « فؤاد الحمزاوى » .

وكمال فى هذا الوقت شاب مسلم لم تفسد عقيدته الدينية بعد ، ولذا فقد عافت نفسه تلك العلاقات الدنيئة التى كانت تتم خلسة مع فتيات مبتذلات فى أقبية الحى وأفنية البيوت المهجورة (٥) . لكن لم يلبث أن انبثق النور فى قلبه ، هنالك وسعه أن يحب وأن يصلى معاً ، كيف لا ؟ : والحب من منبع الدين يقطر صافياً .

ويمثل آل شداد فى الثلاثية الارستقراطية المصرية . فوالد حسين شداد كان من معيّة الخديوى السابق عباس حلمى وظل على ولائه له. تعرف كمال على أصدقائه الجدد فوجد بيئة مغايرة لبيئة سكان بين القصرين . وبهره أسلوب معيشتهم ؛ وذهابهم إلى المصيف فى الإسكندرية أو رأس البر حيث يبقى هو يصلى نار القاهرة . وكان يعجبه خروج الأبوين معا إلى المنازه والأصدقاء . وعقل كمال يقارن بين هذا الأسلوب من الحياة وبين أسرته . أين الارستقراطية من أمه « أمينة » التى لا تعدو فى نظر أبيه جارية تناديه « ياسيدى » تجسيما للعبودية وتأكيداً لسلطته البطركية . ويبدو ذلك واضحاً فى المشهد الذى نرى فيه السيد أحمد عبد الجواد يسافر إلى بورسعيد فى مهمة تجارية فتتجاوب رغبة الأسرة فى الانطلاق وخرجت الأم لزيارة

---

(٥) اقرأ الحوار المثير بين كمال الفتى المثالى وصديقه فؤاد ، الصفحات ٨١ – ٨٥ من قصر الشوق .

الحسين . فماذا كانت النتيجة ؟ . لقد حكم عليها بالنفى إلى منزل أمها. لم ينس كمال هذا الموقف وهو صبى عندما توسل إلى أبيه أن يعفو عن أمه « — رَجَّعَ فينه الله بخليك ، وأطلق ساقيه للريح » «٦» ومحبوبته « عايدة » إنها تمر بأصدقاء أخيها حسين فتهدى السلام فى رقة وببساطة ولكن فى براءة من تلك الحوائل التقليدية التى تفصل فصلا حاسما بين الجنسين ، أين هذا من أخته « عائشة » ؟ ألم يرفض أبوه الضابط الذى تقدم لخطبتها ؟ رفض « خشية أن يقوم عند البعض ظن عن احتمال رؤيته لإحدى الفتاتين إذا علما بزواجه منها .. لا أحب ، لا أريد أن أعطى ابنتى لأحد ليثير الشبهات حول سمعتى ؛ بل لن تنتقل ابنتى إلى بيت رجل إلا إذا ثبت لدى أن دافعه الأول إلى منها هو رغبته الخاصة فى مصاهرتى أنا .. أنا .. أنا » (٧) وهذا يفصح عن مدى التململ — الذى يقترب من التمرد — الذى تعانيه أسرة السيد أحمد عبد الجواد ويشى ذلك بالمحاولات الأولى لنساء البورجوازية الصغيرة للتمرد على الوضع الذى كان يجعل من البيت سجناً لهن (٨) . وفهمى شقيقه ومثله الأعلى ماذا حدث له عندما هفا قلبه بحب « مريم » « — قولى له أن يتأدب ويستحى ويلزم حدوده ، وأن من الخير أن يتفرغ لدروسه » لقد رأى السيد فى طلب فهمى نزوة قبيحة لايجوز أن تعتلج فى نفس تلميذ من آل بيته ، وما كان يتصور أن تتسرب « العواطف » إلى بنيان البيت الذى يحرص على أن يشب فى جو من النقاء الصارم والطهارة المتقشفه » (٩) ولعل هذا السلوك الأخلاقى المتزمت من جانب السيد أحمد يكشف عن طبيعة الطبقة البورجوازية والنسيج النفسى لها ممثلا فى حرص السيد على مظهر الرجل الحازم المتدين يبدو به أمام ذويه

---

(٦) بين القصرين ، ص ٢٥٢ .

(٧) بين القصرين ، ص ١٨٠ .

(٨) يوسف الشارونى : دراسات فى الأدب العربى المعاصر ، المؤسسة المشرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، سبتمبر ١٩٦٤٣ ، ص ٧٤.

(٩) بين القصرين ، ص ١٤٩ .

رغم وجود هذا الجانب الخفى، الماجن فى حياته ؛ شأنه شأن البورجوازية التى تحرص على المظهر وإن خالف الباطن . هذه الطبقة التى عبرت عنها هذه الشخصية بوصفها رمزاً للتناقضات وللازدواجية فى مواقفها فى الحياة . « ولعل هناك صلة نفسية بين جو المحافظة الشديدة الذى يحرص عليه فى بيته والتحور الأخلاقى فى الخارج ، باعتبار أن أحدهما رد فعل نفسى للآخر » (١٠) أين هذا التزمت والكبت الذى يثقل أنفاس أسرة كمال وتلك الحياة الطليقة التى يهفو إليها ؟ ! . لقد هرب كمال من عبودية الأب ليقع فى عبودية « الحب » . والمحبوب « عايدة » .

* * *

يخرج كمال فى نزهة إلى الهرم فى صحبة صديقه حسين شداد وأخته عايدة وأخته الصغرى بدور ..ويشى حديث كمال ومناجاته لذاته باغتراب الاجتماعى ، فهو وإن كان قد شعر بأنه غريب عن أسرته فكرا ووجداناً ، فهو هنا يواجه الغربة الطبقية . ويشعر بالفواصل الاجتماعية : يقول له حسين ضاحكاً وهو يحاوره :

— إنك تجد دائماً وراء الأمور إما الله وإما سعد زغلول .

— أظن أنه لا خلاف بيننا فيما يتعلق بالأول .

— ولكن دأبك على ذكره يضفى عليك مسحة دينية خاصة كأنك من رجال الدين (ثم بلهجة تسليم) فيم العجب وأنت من حى الدين ؟ ! أتكمن وراء هذه الجملة سخرية ما ؟ ، وهل يمكن أن تشاركه عايدة فى سخريته؟، ترى ما رأيهما فى الحى القديم ؟ ، وبأى عين تنظر العباسية إلى بين القصرين والنحاسين ؟ هل مسك الخجل ؟ مهلا إن حسين لايكاد يبدى أى اهتمام بالدين ، والمعبودة فيما يبدو أقل اهتماما منه » (١١) . وعند تناولهم الطعام بدا الطعام الذى جاء به — فى ناظريه على الأقل — عاطلا من حلية الأناقة

(١٠) يوسف الشاروني ، المرجع السابق ، ص ٦٨ .

(١١) قصر الشوق : ص ١٩٩ .

فساوره قلق وحياء . وتألم كمال عندما عرف أن عايدة وحسين يشربان البيرة ويأكلان لحم الخنزير . . . ولم يستطع كمال أن يقاوم الرغبة فى استراق النظر إلى حسين وعايدة وهما يأكلان ليرى كيف يتناولان طعامهما ، أما حسين فكان يلتهم الطعام دون مبالاة كأنه منفرد ، غير أنه لم يفقد طابعه الممتاز الذى يمثل فى عينى كمال الأرستقراطية المحبوبة المنطلقة على سجيتها ، أما عايدة فقد كشفت عن أسلوب جديد من الرشاقة والأناقة والتهذيب فى طبيعتها الملائكية سواء فى قطع اللحم أو القبض بأطراف الأنامل على السندوتش أو حركات الثغر عند المضغ ، ومضى هذا كله يسيرا هينا لا أثر للتكلف أو القلق فيه » (١٢) .

ويفصح هذا المشهد عن اختلاف أسلوب الحيـاة بين كمال رمز البورجوازية التجارية الصغيرة ، والذى نبت من صلب البيئة الشعبية المصرية وبين عائلة آل شداد الارستقراطية . والاستجابة السلوكية للموقف الذى واجهه «كمال» تؤكد غربته بينهم ، وكمال هنا يسجل مثلبة من مثالب البورجوازية الصغيرة وهى أنها فى محاولتها التطلع إلى أعلى تفنى ذاتها فى الوسط الجديد ويبهرها بريق الحياة التى تنشدها .

. . .

ولما صارحه حسن سليم بحب عايدة له آمن قلبه بأنه خسر الدنيا «وعاد فاتر النفس مثقل القلب بالقنوط» بدت الحياة متلفعة فى ثوب حداد ، ولكن لم يكن يعلم من أول الأمر أن هذا الحب ضائع ؟ . . . على أى حال ليكن عزاؤه أن الآخرين يتكلمون عن الحب أما هو فيحب ملء قلبه إن الحب الذى ينور قلبه لايستطيعه أحد سواه ، فهذا هو امتيازه وتفوقه ، ولن يتخلى عن حلمه القديم بأن يظفر بمعبودته فى السماء ، فى السماء حيث لا فوارق مصطنعة ولا رأس كبير ولا أنف غليظ ، فى السماء ستكون عايدة لى وحدى بحكم قوانين السماء »(١٣) وأثناء المشادة الكلامية التى نشبت بين حسن سليم

(١٢) قصر الشوق : ص ٢١٥ .

(١٣) قصر الشوق : ص

وكمال وهما المتنافسان حول عايدة صالح حسن بوجه ممتقع «.. فلندعها توازن بين ما قال ابن التاجر وما قال ابن المستشار هنا «عاد ثائراً هائجاً جريحاً يقطع الطريق وباطنه يستعر بالألم . طعن فى قلبه وكرامته ، معبودته وأبيه ، فماذا بقى له فى الدنيا؟! »(١٤) وعايدة « هل كان خروجها من حياته الا كخروج العمود الفقرى من الجسم الإنسانى يرده من بعد توازن وتكامل إلى شبة جثة ناطقة... أين تذهب ليالى يناير الطوال وهو دافن فى الوسادة عينية الهامعتين إنه يدعو من الأعماق « اللهم قل لهذا الحب كن رمادا كما قلت لنار ابراهيم كونى بردا وسلاما ». وتمنى لو كان للحب مركز معروف فى الكائن البشرى لعله يبتره كما يبتر العضو الثائر بالجراحة ؟... وتطلع إلى ما قبل الحب من الماضى بلهفة كما تطلع السجين إلى ذكريات الحرية الضائعة ، أجل لم يتصور شخصا هو أشبه بحالة من السجن ، غير أن قضبان السجن بدت أطوع للتحطيم وأرق أمام الزمان من أغلال الحب الأثيرية »(١٥) .

وفى يوم عقد القران يذهب كمال فيجدنفسه منزويا مهملا لايقدمة أحد إلى نجوم السياسة الذين كان يتوق إلى التعرف بهم منذ زمن .

قال اسماعيل لطيف وهو يتظاهر بالاستهانة :

— أتيح لى أكثر من مرة أن أجلس مع أصدقاء أبى من أمثال سليم بك والد حسن وشداد بك ، أؤكد لك أنك لن تجد لديهم ما يستحق الاهتمام... غير أن كمال يمضى فى مناجاته الداخلية « أين جاء الفارق إذن بين ابن المستشار وابن التاجر ؟! كيف كان جل حظ أحدهما أن يعبد المعبود على حين يتزوج الآخر منه ؟ ! أليس هذا الزواج آية على أن هؤلاء القوم من طينة غير طينة البشر »(١٦) « وتابعت دقات قلبه الزغاريد حتى لهث ، ثم سمع اسماعيل يهنئ فهنأ بدوره ... كانت كل قطرة من دمه تطرق

(١٤) قصر الشوق : ص ٢٤٩ .
(١٥) قصر الشوق : ص ٢٥٢ .
(١٦) قصر الشوق : ص ٣٤٣ .

جدران عروقه مؤذنة بأن كل شئ قد انتهى ... شعر وهو يتناول العلبة الفاخرة لعله كان أول شعور بالارتياح يحظى به فى ذلك اليوم. فقد وعدته بأن معبودته ستترك وراءها أثر خالدا كحبها ، وأن هذا الأثر سيبقى ما يقى هو على الأرض رمزا لماضى قريب وحلم سعيد وفتنة سامية رائعة . ثم لفه شعور بأنه ضحية اعتداء منكر تآمر به عليه القدر وقانون الوراثة ونظام الطبقات وعايدة وحسن سليم وقوة خفية غامضة لم يشأ أن يسميها . وتراءى له شخصه التعيس وهو يقف وحده أمام هذه القوى مجتمعة وجرحة ينزف فلا يظفر بآس... لن يأخذ الحياة بعد تلك الزغرودة الفاصلة مأخذا سهلا أو يرضى فيها بالقريب أو يتسامح معها تسامح الكرم والصفاء»(١٧) ويناجى نفسه : غدا يسافران إلى بروكسل وتنتقل أنت ما بين النحاسين والغورية ، بلا حبيب ولا صديق ، هذا جزاء من يتطلع إلى السماء ، ستردد بصرك بين أركان المدينة حائرا ولن تبرأ عيناك من لوعة الشوق.. عايدة وحسين فى أوربا ! ، إنسان يفتقد فى ساعة حبيبه وصديقه ، تفتقد روحه معبودها فلا تجده ويفتقد عقلك أليفة فلا يجدة ، وفى الحى العتيق تعيش وحيدا مهجورا كأنك صدى جنين هائم منذ أجيال ... آن لك أن تحصد ما زرعت من أحلام فى قلبك الغر ... غدا تلقى روحك خلاء كما لقيت بالأمس ضريح الحسين ، ياخيبة الأمال ، والمخلصون قتلى أما أبناء الخونة فسفراء»(١٨).

والواقع أن (مأساة كمال لا ترجع إلى مثاليته المستحيلة التحقيق ، قدر ما ترجع إلى عجزه عن جميع القدرة اللازمة لتحويل المستحيل إلى حقيقة ، هذا العجز هو الذى يجعله يفزع من اتخاذ المواقف ، وتحديد الاتجاهات لأن الموقف والاتجاه يستتبعان العمل ، والعمل بالنسبة له شئ رهيب ! . . هو لهذا يهرب من الممكن إلى المستحيل ، ومن الجزئى السهل التحقيق إلى المطلق المستعصى على البلوغ هو هاملت آخر مشلول الإرادة مشفق من حمل

(١٧) قصر الشوق : ص ٣٤٧ .

(١٨) قصر الشوق : ص ٢٩٠ .

العبء ، ساخط على القدر لأنه خصه هو بهذا العبء . كمال يدفع ضريبة فادحة يتقاضاها التاريخ من كل من يواجه معركة كبرى فيقرر تارة أن يلعب فيها دور « اللامنتمى » وتارة أخرى دور الإنسان الكبير القلب الذى تضعه عواطفه النبيلة فوق المعركة . فى الحالتين ينأى كمال عن المعركة والمعركة بعض منه ، تدور فى داخل نفسه كما تدور فى خارجها . ألم يخسر ابن التاجر فتاته لأنه ابن تاجر ، ولأنه غريمه ابن مستشار ؟ . ماذا أفاد إزاء هذه الخسارة أن يتعفف عن الشماتة بآل شداد ويتركها لأحمد المفتون بصراع الطبقات ، فوارق الطبقات حقيقة دمرت حياته . وكلما حاول أن يهرب منها لاحقته فى موقف وراء آخر »(١٩) .

يقول فؤاد الحمزاوى ، بعد أن أصبح وكيلا للنيابة :

— ما دمت قد صبرت حتى اليوم فلأصبر فترة أخرى ، أصبر حتى أرقى قاضياً مثلا فيسعنى أن أصاهر وزيراً إذا شئت » ويعلق كمال وهو يخاطب نفسه « يا بن جميل الحمزاوى ، عروس من صلب وزير وحماتها من المبيضة »(٢٠) وهذا هو الإحساس الطبقى المترسب فى وجدان كمال يطفو على السطح بعد أن أثارته وصولية فؤاد . وقطعاً فؤاد انتهازى ، ولكن صلة كمال به منذ نشأتهما معاً إلى الآن تعكس وجهاً بعينه من العلاقات الاجتماعية تتسم بالاستعلاء الطبقى . فنحن نرى كمال المفكر المثالى المتعالى على الطبقات يتعاطف مع عبد المنعم ابن أخيه الذى نلاحظ ميله للحملة على فؤاد والحط من قدره . فهو يدرك خطورته وتفاهته فى آن وذلك بالقياس إليه . وليس تجاهل كمال لوجود الطبقات إلا غشاء رقيقاً يكشف فى جوهره عن شعور حاد بالفواصل الطبقية التى فرقت بينه وبين من أحب . وهذا الشعور ظهر فى صورة استعلائية مع « فؤاد » . ومن جانب آخر فإن هذا التجاهل ليس إلا وسيلة أخرى من وسائل الهرب من الحزن السهل التحقيق

(١٩) د. على الراعى : دراسات ، ص ٢٦٩ .

(٢٠) السكرية : ص ١١٨

إلى المطلق المستحيل البلوغ : ما دام ليس هناك طبقات بل إنسانية عامة فليس ثمة محل للمعركة وهذا هو ما يزيده كمال وما يسعى إليه ليعيش فى سلام مع نفسه ، ولكن الواقع المحيط به ، وتساؤلاته الدائمة تؤكد له جميعاً زيف هذا المعتقد . إن هذا موقف لا يتخذه إلا من حرم الإيمان لهذا يحسد كمال ابن أخته عبد المنعم على إيمانه المقرون بالعمل : ويتخايل أمام عينيه مثل آخر جديد نبت من تأمل هذين الشابين »(٢١) سيتبين لكمال أن المرء لا يستطيع أن يعيش فى قمقم أنانيته ، ثم يكون سعيداً فى الوقت نفسه ؟ . هذا إذا كان إنساناً حقاً .

* * *

وكمال رومانسى حتى النخاع ، يتألم أن نزل « المثال » من علبائه فهو حزين « لا لفقد الحبيب فإنك ما طمعت يوماً فى امتلاكه ، ولكن لنزوله من علياء سمائه . . لتمرغه فى الوحل بعد إحياة عريضة فوق السحاب . . . لأنه رضى لخلده أن يقبل ، ولدمه أن يسفح ، ولجسده أن يبتذل »(٢٢) ويناجى نفسه « واقلباه أيليق هذا العبد بالمعالى ! ، بحسب الشرير أن المعبودة تحبل وتتوحم وتنداح بطنها وتتكور ثم يجيئها المخاض فتلد ؟ »(٢٣) وبعد أن تصافح كمال واسماعيل وافترقا عاد ثانية إلى العباسية حيث « تراءى له شبح البيت وراء سوره العالى كالقلعة الضخمة ، فجالت عيناه باحثة عن هدف غال حتى استقرتا على نافذة مغلقة يُوَصْوِص النور من خلال خُصاصها فى أقصى الجناح الأيمن من الدور الثانى . تلك غرفة العرس يتطلع إليها طويلا ، أول الأمر بلهفة كأنه طائر مقصوص الجناح يتطلع إلى عشه فوق الشجرة ، ثم بحزن عميق كأنما يرى بعينه مصرعه فيما وراء الغيب »(٢٤) وهنا إرهاص بالتحول الجذرى فى منحنى شخصية كمال الفكرية والوجدانية .

---

(٢١) د. على الراعى : المرجع السابق ، ص ٢٧١ .
(٢٢) قصر الشوق : ص ٣٥١ .
(٢٣) قصر الشوق : ص ٣٥٥ .
(٢٤) قصر الشوق : ص ٣٥٥ .

لقد خلق كمال من معبودته مثالا نفخ فيه من روحه وجعله كائناً أثيرياً حاول أن يحلق حوله هائماً ولا ينزل إلى واقع المحبوب : ورغم غرامه المسرف فى الرومانسية فهو لا يتصور أنه يسرى عليها ما يسرى على أية امرأة من ظواهر فسيولوجية ورغم إصراره على أن يعشق من عايدة الروح ، ويغفل الجسد ، فإنه لا يستطيع أن يتعزى عن فقدها بأن يحولها إلى فكرة . فهو يرغبها لنفسه رغم ما يردده من أنها المعبود الذى لا يطمع سوى أن يحيا معه حياة الروح ألم يقل هو نفسه بعد ذلك « وهل يتزوج الإنسان إلا بدافع من الأنانية » . فهو يريد عايدة المرأة وعايدة المثال حتى يحقق لنفسه التوازن الوجدانى . وما دام لم يحصل على عايدة المرأة فهو يثور ثورة العاجز ويتسحب من الدنيا ويهمل الحياة ويلقى بالمثال إلى أغوار نفسه اللاواعية . . . لم يخل هذا الحب قط من الرغبة . فلم يستطع كمال أن يرقى به إلى سلمة التجريد الكامل . آية هذا أنه يتخيل عايدة فى أوضاع كثيرة تتصل بالجنس ، يتخيل ما يدور فى غرفة نومها ليلة الزفاف ، ويتخيل بطنها وقد تكورت بالحمل . . . وصحيح أنه يتقزز لتخيل هذه المواقف ولكن طوافها بخياله أمر ذو بال ، إنه يمثل رغبة مكبوتة . . . لم يستطع أن يخلص الحب من حب الذات ، فكان لا مفر أمامه من أن يلاشى الذات ليهرب من موقف لا يمكن إلى الأبد احتماله » .(٢٥)

فالفشل العاطفى كان نتيجة لانتمائه إلى البورجوازية الصغيرة التى من سماتها التطلع فكان لا بد أن يهوى كمال ويتداعى . وهذا التطلع هو الذى أدى إلى اغترابه عن ذاته وعن العالم الخارجى . فلم يكن حبه وهماً ولا صدى لوهم بل كان على حد تعبيره حياة الحياة(٢٦) . ومن ثم إذا انمحى هذا الحب فقد بالتالى إحساسه بالوجود ، وفقدت الأشياء هويتها ودلالاتها(٢٧) وليس أدل على خطورة هذا التحول وعمق جذوره من أن هذا

---

(٢٥) د. على الراعى : المرجع السابق ، ص ٢٦٢ – ٢٦٧ .

(٢٦) قصر الشوق : ص ٣٥٦ .

(٢٧) ماهر حسن البطوطى : كمال عبد الجواد اللامنتمى ، الآداب ، بيروت ، العدد السادس ، حزيران (يونيو) ١٩٦٣ ، ص ٣٠ .

الفشل كان من الأسباب العميقة التى أدت به إلى الانقلاب الدينى فى حياته بحيث أصبح مادياً فى تفكيره بعد أن كان مثالياً ، غريباً بعد أن كان منتمياً مثالياً . فى البدء كان متحمساً لمبادئه السياسية يدافع عنها بوصفه ممثلا لأبناء الشعب وللطبقة البرجوازية الصغيرة البازغة . ثابت العقيدة يستند فى ذلك إلى أسس دينية فهو فى هذه المرحلة هادىء فى سربه . أنه يأبى إن يشرب البيرة أو يأكل لحم الخنزير حتى لو كان من يد المحبوبة عايدة . غير أن هـذا الانتماء لم يدم طويلا فقد صحا من غيبوبته الرومانسية على زواج عايدة من صديقه حسن سليم . وبرغم أن صديقه إسماعيل لطيف أخبره أنها استخدمته لإثارة غيرة حسن ونجحت فى الظفر به فهو ثابت فى حبه لايريم . ومرت أعوام وماتت عايدة . ومن عجب الأقدار أنه اشترك فى تشييع جنازتها دون أن يدرى أنه يودع ماضيه. غادر المشرب وهو يقول لنفسه «إنى حزين ياعايدة لأنى لم أحزن عليك كما كان يجدر بى » (٢٨) . ولكن هذا الأسى الذى ران على قلب كمال هو بقية من ماض بعيد أين هو منه الآن . لقد تداعى « المثال » بعد أن غاب عنه إلى الأبد لكنه ترك بصمات حفرها فى قلب كمال وفى رؤيته للأشياء . فيناجى نفسه « لو علم فؤاد الحمزاوى بقصته لقال له وهو يوارى سخريته تحت طلاء أدبه المعهود ، الحق عليك . فأنت الذى هجرتنا من أجل هؤلاء الناس ، احتقرت قمر ونرجس فذق هجر الآلهة . السماء أولا شىء هذا هو جوابى . فلتتزوج كما تحب ... فلن تظفر بحب كحبى ... لم أعد فى سكان هذا الكوكب غريب أنا وينبغى أن أحيا حياة الغرباء (٢٩) . وبدلا من أن يتماسك كمال ويواجه الأزمة العاطفية نلاحظ أنه يدخل فى شرنقة الذات وتلفه معها بخيوطها وأنانيتها وهذا ما يسلم منه أحمد ابن أخته فبعد أن فشل فى حبه لم ييأس بل مضى فى إيجابية نحو تأكيد ذاته بالإيمان والعمل الثورى . ووجد ذاته فيمن تؤمن بمبادئه ومثله أما كمال فهو ممن يدورون حول أنفسهم فالرحمة لهم كما يقول .

---

(٢٨) السكرية : ص ٣٧١ .

(٢٩) قصر الشوق : ص ٣٥٥ .

الفواصل الطبقية هى التى أزرت بكمال وبحبه فهى التى فجرت الأزمة العاطفية التى اكتوى بنارها وقد تركت هذه التجربة فى نفسه مرارة ، شعر بأن الحياة قد جرحت كبريائه وكرامته . حاول كمال بعد أن فشل فى أن يجد ذاته فيمن أحب ، حاول أن يحتفظ بتكامل ألانا فانطوى على ذاته يحتر فشله ويقتات همومه وخلع على نفسه شخصية المفكر المتعالى على الغير . فهو حائر وسط مجتمع هابط مريض ، المريض فى مجتمع لايشعر أنه مريض وهذه من سمات « الغريب » . ويعمق جارودى فى تفسيره للحب من فهمنا لمشكلة كمال العاطفية . فإذا كانت « المرأة مستقبل الرجل » وهذا ما يشير إليه المنحنى العاطفى لكمال ومن ثم فإن تغيير نظرته إلى الحياة وانقلابه الدينى والفكرى يفسر على ضوء هذه المعاناة . يقول جارودى : « إن الحب هو المعاناة الممتازة لهذه الحقيقة العميقة ، حقيقة أن ولادة الفكر تتم من خلال المادة لاخارجاً عنها ، وأن الفكر ليس نقيض الطبيعة بل هو توكيد للطبيعة . وكما أن القيمة الأخلاقية للأفعال تقاس بما توحى به إلينا من طاقة ، كذلك يحكم على شأن الحب تبعاً لثروة الأفكار والمبادرات التى يبتعثها فينا ، والطاقات الغافية التى يوقظها » (٣٠) وربما أمكن — من خلال الحب — أن تكتشف الكائن ذاته فى حركة حياته ، فى مستقبله الخلاق . أو على العكس فى لا اتمائه وعقمه كما حدث مع كمال . ويقدم برديائيف تفسيراً لظاهرة الغربة يلقى مزيداً من الأضواء على مشكلة كمال وفى الوقت نفسه يتمم رأى جارودى . يقول : « إن الوعى الذاتى يقتضى الشعور بالآخرين ، فهو اجتماعى فى أعمق أعماق طبيعته ... وانعزال الذات انعزالا مطلقاً ورفضها الاتصال بأى شىء آخـــر خارجها أو « بالأنت » عبارة عن انتحار ... (وهو) يرتبط بحالة من العذاب والضعف والتهافت والتمزق ، وهذه الحالة من الشقاء تتصل بما أطلق عليه بعض الفلاسفة من أمثال «زمل» و « تاليتشى » و « يسبرز » الموقف الحدى للانسان ... situation – fimite والانسان لايدرك شخصيته وأصالته وتفرده وتميزه عن كل شخص وعن

---

(٣٠) جارودى : ماركسية القرن العشرين ، ص ١٨١ — ١٨٢ .

كل شيء إلا عندما يكون وحيدا ، وإلا عندما يستبد به ذلك الشعور الحزين الكئيب بانعزاله . والشعور بالعزلة الحادة يميل إلى أن يجعل كل شيء آخر يبدو غريبا معاديا ، وحينئذ يشعر الإنسان بأنه غريب متوحد لا وطنا روحيا له ... ومن الخطأ اعتبار العزلة نزعة انعزالية ، وإنما على العكس من ذلك لا توجد عزلة إلا وكان وجود الذات الأخرى والأنا الأخرى مرادفا للعالم المجرد الموضوعى . والأنا لا تعانى عزلتها داخل نفسها مثلما تعانيها وسط الآخرين ، وسط عالم مجرد . والعزلة المطلقة لا يمكن تصورها ، بل من الضرورى أن تكون مقترنة دائما بوجود الغير و « الذات الأخرى » ... بيد أن فكرة العزلة تفترض دائما الحاجة واللهفة إلى الاتصال الروحى . وحينما يصبح الإنسان مدركا لنفسه بوصفه شخصا ، وحينما يتطلع إلى تحقيق شخصيته ، عندئذ ينبغى عليه أن يعترف أولا بعجزه عن الاستمرار فى وجوده التنسكى ، وأن يعترف ثانيا بالمصاعب العظيمة التى تكتنفه من كل جانب فى محاولة الهروب من عزلته وأن يجعل من نفسه شيئا واحدا مع الذات الأخرى ، والإنات الأخرى .

والعزلة ظاهرة اجتماعية بمعنى من المعانى لأنها تفترض الشعور بالذات الأخرى ، وإن أكثر أشكال العزلة تطرفا وكآبة هو ما تعانيه وسط المجتمع فى العالم الموضوعى ، واتصال « الأنا » باللا — أنا ، وبالعالم الموضوعى لا يحل مشكلة العزلة فهذا الاتصال يحدث كل يوم ، ولكنه يضاعف من عزلة الإنسان أكثر من أن يخففها ... وهذه العزلة لا يمكن التغلب عليها إلا فى المستوى الوجودى بالتقاء الأنا مع أنا أخرى ... مع « أنت » أو مع الذات . وحينما تتجرد من حياتها الجماعية الأولى ، وتعانى المولد المؤلم للوعى ، والانفصال والعزلة فإنها لا تستطيع أن تحقق التكامل والانسجام والاتصال الروحى بالآخرين بأن تعود إلى الحياة الجماعية فى عالم فوضوى ، بل ينبغى عليها أن تجد مخرجا من العالم الموضوعى الذى لا يوجد فيه أى اتصال روحى « وليس هناك — فى رأيى — تعارض بين العودة إلى الحياة الجماعية ورحابتها والمساهمة بالجهد الذاتى فى الارتقاء بها ، وبين البحث

عن الاتصال الروحي الذي تنشده الأنا كما يبدو من كلام برديائيف. صحيح أن « الأنا » تحاول أن تتغلب على عزلتها بوسائل عدة : كالمعرفة ، والحياة الجنسية ، والحب ، والصداقة ، والحياة الإجتماعية ، والأعمال الأخلاقية ، والفن ، وغير ذلك .. والذات تعانى حاجة عميقة ألى أن تنعكس إنعكاسا حقيقيا فى ذات أخرى ، وأن تتأكد وتتحقق بواسطه ذات أخرى ، وهى تتطلع إلى أن تسمع وأن ترى . . . وهنا تمكن الدلالة العميقة للحب . . . والعزلة هى النتيجة المباشرة للضغط الذى يفرضه العالم الطبيعى والاجتماعى على الشخصية لتحويلها إلى موضوع ، ولكن ، للشخصية وظيفة خالقة عليها أن تمارسها فى الحياة الاجتماعية والكونية ، ومن الناحية الروحية لا يمكن عزل الشخصية لأنها تفترض وجود الآخرين ... دون أن تصبح فى الوقت نفسه جزءا أو وسيلة »(٣١) .

وتسجل نهاية قصر الشوق –الفصل الأربعون بالذات – اللحن الجنائزى لحياة كمال المثالية وتؤذن «بإيقاع» جديد هو فى جوهره « تنويعات » على الفلسفة المادية إذ يقف كمال غريبا عن ذاته وعن المجتمع بعد أن وصل إلى لحظة الإدراك ، وهى اللحظة الفريدة التى يقف فيها المرء وحيدا وقد أدرك حقيقة نفسه . بدأ يتساءل – بعد أن فقد إيمانه بكل القيم والأشياء – عن الغاية من وجوده فى هذه الدنيا . ولحظة الإدارك هذه لا تؤتى إلا لمن « يشعر بالعزلة والمجتمع فى آن واحد ، وقد يبدو هذا غريبا لأول وهلة ، إذ تتنافر العزلة عادة مع الروح الاجتماعية ، غير أن هذا النوع هو نوع الأنبياء ... ويضم المبدعين والمجددين والمصلحين وأصحاب الثورات الروحية ، وهذا النوع الذى يتسم بالنبوة فى صراع دائم مع المجتمع الدينى أو الاجتماعى ، وقلما يكون فى انسجام مع البيئة الاجتماعية أو الرأى العام »(٣٢) ويعرف كولن ولسون الغريب أو اللامنتمى بقوله : « إنه

---

(٣١) اقرأ برديائيف (نيقولاى) : العزلة والمجتمع ، الصفحات من ١١٣ – ١١٩ ، و١٢٣–١٢٤ ، ٢١٦ .

(٣٢) المرجع السابق : ص ١٢٩ .

الانسان الذى يدرك ما تنهض عليه الحياة الإنسانية من أساس واه ، والذى يشعر بأن الاضطراب والفوضوية هما أعمق تجذرا من النظام الذى يؤمن به قومه ... إنه كما يقول باربوس ، يرى أكثر وأعمق مما يجب ، وهو لا يرى إلا الفوضى » (٣٢) ويتميز الجو الذى يحيا فيه الغريب بأنه جو كريه جدا ، « فهؤلاء الأشخاص لا يرفضون الحياة فحسب ، وإنما يعاديها الكثير منهم . إن عالمهم المجرد من القيم هو عالم أشخاص بالغين ، والفرق بين عالم البالغين وعالم الأطفال هو أحد الفروق الرئيسية بين عالم القرن العشرين وعالم القرن التاسع عشر ، لقد كان لا منتمى القرن التاسع عشر طفلا لا ينتظر منه أن يكون نهلستيا متشائما ... ولم يستطع لا منتمى القرن التاسع عشر أن يعتقد أن الخطأ كامن فى الطبيعة الإنسانية لأن الفلسفة التى كانت غالبة على ذلك العصر كانت تقول بأن الكمال الإنسانى شىء يمكن أن يتحقق . ولهذا فقد ظن أن الخطأ يكمن فيه »(٣٤) وينبغى أن نلاحظ أن اغتراب كمال من نوع خاص (٣٥) وليس كاغتراب الإنسان الأوروبى الذى يعد ثمرة أو إفرازا لمجتمع بورجوازى بدأ فيه الفرد يشكو من نذر تداعى الحضارة الغربية ، مجتمع فقد الفرد فيه إيمانه بالدين والعقل وانطلق كالشهاب المحترق ، غريبا بعد أن اقتلع جذور شجرته بيديه أما كمال فاغترابه يتولد من انتمائه إلى مجتمع شرقى مسلم ، يلعب الإسلام فيه دورا صلبا يصعب اقتلاع جذوره . فالميراث الحضارى الذى ترسب فى لاشعور كمال كان ميراثا إسلاميا فى حين أن الواقع الاجتماعى كان يطرح سؤالا يطلب الإجابة وهو : كيف يستوعب

---

(٣٣) كولن ولسن : اللا منتمى ، نقله إلى العربية أنيس زكى حسن ، الطبعة الرابعة ، تشرين الأول ١٩٦٥ ، ص ٧ ، ٨ .

(٣٤) كولن ولسن : المرجع السابق ، ص ٨ .

(٣٥) أجاب نجيب محفوظ عن سؤال وجهه إليه : ما هى مأساة كمال فى نظرك .. الانتماء أم اللا إنتماء ، أم شىء آخر ؟ . فرد قائلا : ربما كان كمال لا منتميا ، ولكنه لا منتم من نوع خاص إذ أنه نزع إلى الانتماء بشكل واضح وإنسانى وإن يكن غير محدد المعالم . إقرأ مجلة حوار ، السنة الأولى ، العدد الثالث ، آذار – نيسان (مارس – أبريل) ١٩٦٣ ، ص ٨٦ .

الإنسان الشرقى المسلم الحضارة الغربية ، وهى حضارة علمانية عقلانية تستند أساسا إلى العلم والتكنولوجى ؟ .. كيف يتمثل هذا العطاء الحضارى مع احتفاظه فى الوقت نفسه بميراثه الحضارى الإسلامى ؟ وهل يمكن لهذا الإنسان أن يصل إلى التوازن بين الذات والواقع المتغير بفعل الشرارة الحضارية التى كهربت مصر وغيرت وجهها ، دون أن يتخلى عن الدين وهو لب ميراثه الذى كان يمثل فى يوم ما محور النظر للاشياء ؟

. . .

ويمضى كمال فى رحلة البحث بعد التحول العظيم الذى طرأ على حياته فيتعرف على المرأة . بالأمس كان يناضل الغريزة بالدين وبعايدة ، أما الآن فقد خلا للغريزة الجو . غير أن ثمة حافزا آخر للمغامرة هو أن يكتشف المرأة ذلك المخلوق الغامض الذى تنطوى عايدة نفسها تحت جنسه ولو كره . لعل فى ذلك عزاء عن السهاد والدموع المطوى سرها فى جوف الليل المكتوم الآن يستطيع أن يقول أن يقول إنه خرج من زنزانة الإستسلام ليخطو الخطوة الأولى فى طريق الخلاص وإن يكن طريقا مخمورا محفوفا بالشهوات والمكاره ... أما باطنه فكان يحتفل بمولد إحساس جديد ينفث حرارة وصبوة ، فتابعه مستسلما كما يتابع نغمة حلوة .

لكن ما الأثر الذى خلفته أول تجربة له مع « الجنس » ؟ لقد « تاقت نفسه فى هذه اللحظة إلى التطهر والانعزال والتأمل ، وحن إلى ذكرى الحياة التى عاشها معذبا فى ظل المعبودة ، ثم بدا وكأنه آمن بقسوة الحقيقة إلى الأبد . أيجعل من الإعراض عن الحقيقة مذهبه ، ... إذا كانت الحقيقة قاسية فالكذب دميم ، ليست الحقيقة قاسية ولكن الانفلات من الجهل مؤلم كالولادة ، أجر وراء الحقيقة حتى تتقطع منك الأنفاس ، أرض بالألم حتى تخلق نفسك من جديد ، هذه المعانى تحتاج إلى عمر لاستيعابها ، عمر من التعب تتخلله سويعات من الخمر » (٣٦) .

---

(٣٦) قصر الشوق : ص ٣٩٥ .

بمركمال بلحظة الوعى بالذات والوعى بالغير ، تتكشف له الحياة عن أشياء كان يجهلها ، فساءت نفسه منها وإن تكن قد صهرته « تأمل هذه العجائب : .. أنت وياسين تتشاربان ، ، أبوك شيخ ماجن ، هـل ثمة حقيقى وغير حقيقى ! ؟ ماعلاقة الواقع بما فى رؤوسنا ! ؟ ماقيمة التاريخ ماالعلاقة بين مايدة المعبودة وعايدة الحبلى ؟ أنا نفسى ماأنا ؟ ، لماذا تألمت ذلك الألم الوحشى الذى لم أبرأ منه بعد ؟ ، أضحك حتى تنفق» (٣٧) ويقول كولن ولسن عن هؤلاء اللامنتمين « إن مشكلتهم هى لا حقيقية حياتهم وهم يدركون ذلك فعلا حين يكون سببا فى ايلامهم ، إلا انهم لا يدركون مصدر هذا الألم . ان هذا العالم الاعتيادى يفقد قيمته بالنسبة اليهم ولا تتسم الحياة بطابع الكابوس أو بما يشبه شاشة السينما حينما تكون بيضاء ، إذ يدرك هؤلاء الأشخاص فجأة أن ما كانوا يشاهدونه من آمال ورغبات لايعدو فيلما مصورا على الشاشة ، فيسألون من نحن ؟ ماذا نصنع هنا ؟ وبينما ينتهى وهم الشاشة وينقطع سيل حوادثها العريضة ومصادفاتها فجأة ، يجدون أنفسهم وجها لوجه أمام حرية مرعبة ويعبر سارتر عن ذلك بقوله « إنهم محكوم عليهم بالحرية » « إن اللامنتمى هناهو ذلك الشخص الذى لا يستطيع أن يقبل الحياة كما هى ، والذى لا يستطيع أن يعتبر وجود أى فرد آخر ضروريا . إنه يرى أعمق وأكثر مما يجب ، وهكذا فالمشكلة ماتزال مشكلة تعبير ذاتى » (٣٨) .

ويتأمل كمال الغريب شريط حياته ، علاقته بأمه وأبيه وصاحبته ، وعلاقته بربه كيف كانت ، وكيف أصبحت ؟ ويعود مستوحشا شاكا ، غريبا فى منفاه الفكرى فيثور على أمه « وأنت يا أمى لا تحملقى فى وجهى بافكار أو تتساءلى ماذنبى ... إنه الجهل هو جنايتك ... أبى هو الفظاظة الجاهلة وأنت الرقة الجاهلة ، وسوف أظل ما حييت ضحية هذين الضدين . وجهلك أيضا هو الذى ملأ روحى بالأساطير فأنت همزة الوصل بينى وبين عالم الكهوف

(٣٧) قصر الشوق : ص ٤٠١ .

(٣٨) كولن ولسن : المرجع السابق : ص ٧٦ ، ص ٩٣ .

وكم أشقى اليوم فى سبيل التحرر من آثاره كما سأشقى غدا فى سبيل التحرر من أبى » (٣٩).

أما أبو السيد أحمد عبد الجواد — فيكتشف كمال أنه أخو صبوة وطرب، وحليف كأس ووتر وهو فى ثورته على أبيه ، يتمرد على الجهل الذى سبب توتر العلاقة بينهما « الذا يكره الجهل أكثر من أى شر فى الحياة فهو مفسد لكل شئ حتى الأبوة المقدسة ... غير أنى مازلت أحبك وأعجب بك حتى بعد أن زايلتك صفات الألوهية التى توهمتها فيما مضى عيناى المسحورتان . أجل لم تعد قوتك إلا أسطورة ... ولكن لست وحدك الذى تغيرت فكرته ، الله نفسه لم يعد الله الذى عبدته قديما ، إنى أغير بل صفات ذاته لأنقيها من الجبروت والاستبداد والقهر والدكتاتورية وسائر الغرائز البشرية ، ولست أدرى أين ينبغى أن أشكم الفكر ولا إن كان من الفضيلة أن أشكمه » ، بل ان نفسى تحدثنى بأنى لن أقف عند حد ... أنى قررت أن أصمد حدا لاستبدادك لا بالتحدى والعصيان فإنك أكرم على نفسى من ان أفعل بك هذا ، ولكن بالهجرة ؟ ، أجل لأهاجرن من بيتك حال أقف على قدمى ... أتدرى ماذا كانت عواقب حبى لك رغم استبدادك بى ؟ . أنى عبدت مستبدا آخر ظالما ظلمنى بظاهره وباطنه معا استبد بى دون أن يحبنى ، ورغم ذلك كله عبدته من أعماقى ولا زلت أعبده ، فأنت أول مسؤول عن حبى وعذابى » (٤٠). وهذا الإحساس يعمق من الحدود الانفصال بين كمال وبين اسرته ويزداد شعورا بغربته فكرا ووجدانا .

يقف كمال وحيدا ، غريبا بعد أن أدرك أن كل شئ هالك مصيره الفناء. مضى مدفوعا بروح الباحث عن الحقيقة « كل شئ تغير مدلوله ومعناه ، الله ... آدم .. الحسين .. الحب .. عايدة نفسها .. الخلود ؟ . نعم ، بما يجرى على الحب وفيما جرى على فهمى ... أتذكر التجربة التى قمت بها

(٣٩) قصر الشوق : ص ٤١٢ .

(٤٠) قصر الشوق : ص ٢٤٠ .

وأنت في الثانية عشرة من عمرك لتعرف مصير المجهول ؟ • يالذكرى المحزنة ، اقتنصت عصفورة من عشها ثم خنقتها وحفرت لها قبرا صغيرا فى فناء البيت على كثب من البئر القديم ثم دفنتها فيه. وبعد أيام أو أسابيع نبشت القبر وأخرجت الجثة ، فاذا رأيت وماذا شممت ؟ • وذهبت إلى أملك باكيا فسألتها عن مصير الميت ، كل ميت ، ومصير فهمى خاصة فلم يصدك عنها إلا إفحامها فى البكاء : فماذا بقى من فهمى بعد سبع سنوات ؟ • وماذا سيبقى من الحب؟ وعم تمخض الأب الجليل ؟ » (٤١) ومن المؤكد أن مأساة كمال ، وإن كان الحب يحركها ويتحكم فيها فهو أبدا لم يخلقها فى البداية — إن حيرة كمال وتردده ولدت معه!— هى حيرة مبعثها التعلق بشىء غامض ، مطلق مجهول يسميه الحقيقة » (٤٢) والمشهد السابق تعلم منه كمال « كذب المعنى الأول لكلمة الخلود . وقد ظل طيلة حياته يجرى وراء هذا الشىء الغامض المطلق بغية أن يمسك به ، ويعرف كنهه ، فى سبيله أعرض عن الدين والأسطورة والفن ، وجعل يبنى حياته من جديد على صخرة العلم و الفلسفة و المثل الأعلى • فى سبيل إدراك الحقيقة خرج كمال فى «رحلة البحث » استغرقت حياته كلها • وكانت عدته فيها : « رأس كبير وأنف ضخم ، وحب خائب ، وأمل فى المرض » (٤٣) وهو « يفكر فى عيد ميلاد جديد ، عقل قد عب من منهل الفلسفة المادية حتى ألم فى شهرين بما تمخض عنه تفكير الإنسانية فى قرن من الزمان ••• مضى من العمر تسعة عشر عاما ••• مضى عهد البراءة ولحق به العهد الذى كانت تؤرخ فيه الحياة بالحب ق . ح . ب . ح اليوم الأشواق كثيرة إلا أن المحبوب مجهول الكنه ••• فهو يعرف الحقيقة ومسرة الحياة ونور العلم » (٤٤) .

ويتأمل موقفه من الحياة فى مطلع عامه الجديد • لم يعد يجد رفيقا يحاوره

---

(٤١) قصر الشوق : ص ٤١٠ .

(٤٢) د. على الراعى المرجع السابق ، ص ٢٦٧ .

(٤٣) المرجع السابق ، ص ٢٦٨ .

(٤٤) قصر الشوق : ص ٤٢٥ .

بمكنون روحه ... فاتخذ من روحه صديقا ، ومضى يناجي روحه ويحاورها :
« ... لا أخفي عنك أني قد ضقت بالأساطير ذرعا ، غير أني في خضم الموت العاتي عثرت على صخرة مثلثة الأضلاع سأدعوها من الآن فصاعدا صخرة العلم والفلسفة والمثل الأعلى . ولا تقل أن الفلسفة كالدين أسطورية المزاج ، فالحق أنها تقوم على دعائم ثابتة من العلوم وتتجه بها إلى غايتها . أما الفن فمتعة سامية وامتداد للحياة غير أن مطمحي أبعد من الفن منالا ، لأنه لا يرتوي إلا بالحقيقة ، والفن بالقياس إلى الحقيقة يبدو لهوا أنثويا ... أما عن مؤهلاتي للدور الخطير فرأس كبير وأنف ضخم وحب خائب وأمل في المرض ... وتسألني هل أؤمن بالحب فأجيب : بأن الحب لم يبرح فؤادي بعد ، فلا يسعني إلا أن أقر بحقيقته الإنسانية ، ومع أن جذوره كانت مشتبكة بجذور الدين والأساطير فإن تقوض المعابد المقدسة لم يزعزع أركانه أو يقلل خطورة شأنه ... ألا زلت تؤمن بخلود الحب . . ليس الخلود ألا أسطورة ، لعل الحب ينسى ككل شئ في هذه الدنيا ، وقد انقضى على زواج ... عايدة — لم تتردد قبل التفوه باسمها — عام قطعت شوطا في طريق النسيان ، مررت بطور الجنون فطور الذهول فطور الألم الحاد ثم طور الالم المتقطع ... وعلى أي حال غدوت أؤمن بأني سأواصل الحياة بلا عايدة . علام تعول في طلب النسيان . . على دراسة الحب وتحليله كما سلف ، والتهوين من الآلام الفردية بالتأملات الكونية التي يبدو عالم الإنسان في مداراتها هباءة تافهة ، والترويح عن النفس بالشراب والجنس ، والتماس العزاء عند فلاسفة العزاء ... أسرك أن وجدت الحب ينسى سرني لأنه يعدني بالنجاة من الأسر ، وأحزنني بما كان تجربة خبرت بها الموت قبل حضوره ، ومهما يكن من أمر فسأمقت ما حييت الأسر وأعشق الحرية المطلقة ... سعيد من لا يفكر في الانتحار أو يتمنى الموت ، سعيد من تتوهج في قلبه شعلة الحماس ، وخالد من يعمل أو يتهيأ صادقا للعمل (ولكنه أبعد ما يكون عن اتخاذ موقف إيجابي عملي) حتى من يتأثر بكتاب الخيام وكأس معشوق ... وحسبك أن غرامك بالشراب يسير سيرا حسنا وأن إقبالك على المرأة لا تعترضه عقبات من تقزز أو نفور ، أما

حنينك من حين لآخر إلى الطهر المتقشف فلعله بقية من تدينك القديم»(٤٥).

وكمال فى قمة غربته يكون فى قمة إحساسه بفرديته الغالية ، وبوجوده الفردى لا وجوده الاجتماعى «قد أكون معذبا حقا ولكننى حى ، إنسان حى ، ولن تكون حياة الإنسان الخليقة بهذا الإسم بلا ثمن ، هذا هو العذاب الذى يدفعه الغريب جزاء سلبيته وتردده وأنانيته عن المشاركة الإنسانية العامة وضنه بنفسه عن أن يجعلها فى خدمة المجموع فأى حياة تلك ! إنها حيـــاة قاحلة عقيمة .

وطبيعى أن يعزف كمال عن الزواج ، إذ أنه شعر بأن المجتمع والنظام الاجتماعى القائم على الفواصل الطبقية قد حرمه ممن أحب ومن ثم أحس بأن العالم الخارجى قـــد اعتدى على كرامته فانسحب من المعركة مكتفيا بالآمال يلهث وراءها « القلب اللهج بالأمال ينسى أو يتناسى الزواج كالكأس المترعة بالويسكى لا تتسع للصودا »(٤٦) . والزواج هو فى جوهره محاولة للانتماء والتكامل والتوازن الوجدانى . وتصور كمال أن المفكر لا يتزوج و ماينبغى له ، وأنه طالما ارتضى لنفسه صفة المفكر فلا ينبغى له أن يفكر أو يتطلع إلى الاستقرار . كان يتطلع إلى فوق ويظن أن الزواج سيحمله على النظـــر إلى تحت . ولذلك لكمال أن يتخذ موقف المشاهد المتأمل بقدر ما ينفر من الاندماج فى ميكانيكية الحياة . وإنه ليضن بحريته كما يضن البخيل بماله . والمرأة عنده لم تعد سوى شهوة تقضى . وفوق هذا فهو حائر يداخله الشك فى كل شئ ، والزواج نوع من الإيمان . وقد أورثه الشك تردداً وحيرة فهو « يرى الزواج دائما فى مركز عجيب بين الحنين من ناحية والاشمئزاز من ناحية أخرى ، أما فى نهاية العمر فلن تجد إلا الوحدة والكآبة »(٤٧) . وعندما تزوج صديقه رياض قلدس « شعر كمال أن كل شئ حوله يتداعى وأنه افتقد صديق روحه المعذبة . يقول

---

(٤٥) قصر الشوق : ص ٤٢٦ ، ٤٢٨ .

(٤٦) قصر الشوق : ص ٤٢٨ .

(٤٧) السكرية : ص ١٤٦ .

لصاحبه وهو يحاوره « تصور أن تغرق حتى قمة رأسك فى هموم الحياة اليومية ... أن يحسب وقتك بالقروش والملاليم ، أن تمسى شاعرية الحياة ضياع وقت ... إن الذى يكربه الآن أنه بات مهددا بالوحدة المرعبة مرة أخرى ، كما عانى عقب اختفاء حسين شداد من حياته ، لو كان من الممكن أن يجد زوجة لها جسم عطية وروح رياض فى شخص واحد يتزوجه فلا يتهدده الشعور بالوحدة حتى الموت ، هذه هى المشكلة »(٤٨) — فالمشكلة التى تمور بها نفس كمال أنه يتشوف إلى الانتماء ، ومن ثم فهو يسعى إلى ممارسة حياته الوجدانية والعقلية ممارسة إيجابية مع المرأة حتى تتوفر لها السكينة المتبادلة . لكنه مطحون بين التردد والشك لذا ، فهو يردد بصره بين أحمد وعبد المنعم شوكت فى إعجاب مقرون بالغبطة « إن الجيل الجديد يشق سبيله العسير إلى هدف بين دون شك أو حيرة ، ترى ما سر دأبى الوبيل ؟ » (٤٩) إنه يتساءل عن سر تردده وشكه ، وهو يعلم علم اليقين السبب الأصيل لذلك . إن مشكلته هى الإيمان المفتقد . الإيمان المقرون بالعمل . نسى كمال أن الإيمان ليس بالتمنى وإنما ما وقر فى القلب وصدقه العمل . هذا الإيمان هو الإيمان الذى فهمه أحمد وعبد المنعم على اختلاف اتجاهاتهما الأيديولوجية ، وما اعترف به كمال « المشكلة هى كيف نخلق لأنفسنا هذا الإيمان » . لكن كمال لم يعد يؤمن بشئ « أصبح يرتاب أحيانا فى قيمة ما يكتب . وربما ارتاب فى ارتيابه نفسه . وسرعان ما اعترف فيما بينه وبين نفسه بأنه قد ضاق بكل شىء ذرعا ، وأن الدنيا تبدو أحيانا كلفظة قديمة اندثر معناها » (٥٠) وهكذا تمضى حياته كالطاحونة تدور وهو يمدها بنفس الدقيق .

غربة كمال الايدلوبوجية

امتد الانهيار — بعد الفشل العاطفى — إلى عقيدة كمال السياسية . كان

---

(٤٨) السكرية : ص ٢٨٣.

(٤٩) السكرية : ص ١٥٤.

(٥٠) السكرية ص ٦١.

الوفد عقيدة تلقاها عن فهمى واقترنت فى قلبه باستشهاده وتضحيته فى حين كان رفاقه ينتمون إلى حزب الأحرار الدستوريين . وكمال الذى كان يدافع عن الشعب وعن زعيمه فى حرارة يقول – لصديقه إسماعيل لطيف : –

– أنت لا تهملك السياسة فى شىء ، لكن مزاجك يفصح أحيانا عن موقف « فئة » من المحسوبين على المصريين كأنك ناطق بلسانهم ، تراهم يائسين من نهوض الوطن ، يأس الاحتقار والتعالى لا يأس الطموح والتطرف ، ولولا أن السياسة مطية لأطماعهم لأعتزلوها كما تفعل أنت » (٥١) .

وهذا الاتجاه نحو الالتحام بالشعب ، يبرز من خلال المناقشات التى دارت بين كمال وبين رفاقه الارستقراطيين (٥٢). كانوا يتعالون على الشعب ويدافعون عن الحزب الذى ينتمون إليه باعتبارهم « أصحاب المصلحة الحقيقة » فى هذا البلد – هكذا – يتصورون وهم فى الواقع آخر من ينظر إلى مصلحة الوطن والمصلحة الحقيقية عندهم هى مصلحتهم الخاصة . إنهم إذا ما تكلموا عن الشعب فكأنما يتكلمون عن شعب غريب . أما كمال ممثل الشعب الأصيل فكان يدافع عن حقوق الشعب وعن زعيمه سعد زغلول بحيث يصبح هو مندوب سعد ويصبحون هم مندوبى عدلى وثروت ومحمد محمود .

ع السياسى لا ينفصل هنا عن الصراع الطبقى بل هما وجهان لحقيقة واحدة وهى ، المشكلة الاجتماعية أو بقول آخر مشكلة العدالة الاجتماعية فهما من أشكال البناء الفوقى للمجتمع . وهى المشكلة التى احتوت حياة كمال ، هنا الارستقراطية بكل ثقلها ونفوذها ممثلة فى رفاقه حسين شداد وحسن سليم

---

(٥١) بين القصرين : ص ١٧١ ونجيب يحرص فى هذا العمل الفنى العظيم – الثلاثية – أن يسجل الإيقاع التاريخى للواقع السياسى فى مصر فيقول : « لقد اتضح أن مجموعة من زملائه .. أبناء الذوات والطبقة العليا .. كانوا ضد سعد ، ومع عدلى والملك والإنجليز .. تسربت إلى نفسى من هذه الخصومات الحزبية الكثيرة «سوء الظن» لهذه الطبقة الأرستقراطية . . لقد بدأت أشعر أن لهم موقفاً خاصاً .. هو فى النهاية غير موقف الشعب ، ويقترب كثيراً من موقف السراى والإنجليز .. وطبقا هذا شئ طبيعى جدا .. فمصلحة هذة الطبقة لن تكون إلا برضى الملك والإنجليز .. وليس الشعب » . اقرأ : نجيب محفوظ وثورة ١٩١٩ – حوار أجراه سامح كريم ، فجلد الكاتب – ابريل ١٩٦٩ العدد ٩٧ ، ص ٢٩

(٥٢) اقرأ الحوار الرواية (قصر الشوق) : ص ١٧٠ – ١٧٤ .

تنافس البورجوازية المصرية البازغة بكل طموحها وآمالها ممثلة فى كمال ، ومحور الصراع ، كرم الأصل وشرف المنبت ، والفواصل الاجتماعية بين الطبقتين . ويتأزم الصراع حين يفصح كمال عن حبه لعايدة وتسخر عايدة من أوهامه وتقترن بابن المستشار «حسن سليم» : فضلته على ابن التاجر . والهزيمة هنا تشى بهزيمة الشعب ، فهى فى بعدها الأخير هزيمة اجتماعية فى مضمونها وكانت هذه الهزيمة تعد نقطة تحول ضخمة فى خط السير النفسى لكمال تناولها نجيب محفوظ كبداية لأثر الصراع الطبقى فى أزمة جيل سابق عاش فى مجتمع مريض(٥٣) .

وكمال نفسه شعر بأن مشكلته الشخصية لا تنفصل عن المشكلة الاجتماعية لوطنه « ومن عجب أنه وجد فى الحياة السياسية صورة مكبرة لحياته ، فكان يطالع أنباءها فى الصحف وكأنما يطالع مواقف مما مر به فى بين القصرين أو العباسية . هذا سعد زغلول — مثله هو — شبه سجين وهدف للطعنات الباغية والحملات الظالمة وخيانة الأصدقاء وغلوهم وكلاهما — هو وسعد — يكابدان أحزانا من اتصالهما بأناس علوا بأرستقراطيتهم وسفلوا بفعالهم ، تقمص شخص الزعيم فى كدره كما تقمص حال الوطن فى قهره ، وكان يلاقى الموقف السياسى وموقفه الشخصى بعاطفة واحدة وانفعال واحد ، فكأنما كان يعنى نفسه وهو يقول عن سعد زغلول وأتليق هذه المعاملة الظالمة لهذا الرجل المخلص وكأنما كان يعنى حسن سليم هو يقول عن زيور «خان الأمانة واستحل القبيح فى سبيل الاستيلاء على الحكومة ، وكأنما كان يعنى عايدة وهو يقول عن مصر « هل تخلت عن رجلها الأمين وهو يذود عن حقوقها ؟ » (٥٤) .

والواقع التاريخى للبورجوازية الزراعية المصرية وموقفها من ثورة ١٩١٩ يكشف عن طبيعة الدور المعوق للحركة الوطنية وللثورة وزعيمها سعد .

---

(٥٣) أنور المعداوى : الآداب ... ص ٢٢ .

(٥٤) قصر الشوق : ص ٢٥٣ .

« إذا كانت الطبقة البورجوازية الزراعية قد آزرت الثورة الزراعية فى بعض مراحلها ثم تخلت عنها وهادنت الاحتلال منذ ١٨٨٢ إلى ١٩١٤ . وتركزت فى حزب الأمة والجمعية التشريعية مناوئة للحركة الوطنية ، فإن هذه الطبقة قد أحست بضرورة التصدى لثورة الشعب ١٩١٩ وكانت من العناصر التى سيطرت على قيادة الثورة منذ بدايتها .. فقد كشف سعد زغلول فى خطاب ألقاه فى ٢١ يناير ١٩٢١ حقيقة هذه الطبقة . لقد رأيناهم يقابلون بوجوه باشة بسامة كل خبر يدل على ضعف النهضة الوطنية وفتور الهمم وانحلال القوى . إن حزب الأمة عاد إلى بدايته وانتهى إلى غايته ». وقد أبان سعد زغلول عن دخول الثورة فى مرحلة جديدة ارتفعت إلى مستوى الوعى القومى الذى تفجر منذ مارس ١٩١٩ ، وكان وقوده العمال والفلاحون والمثقفون والطلبة ، وكان نتيجته آلاف من الشهداء والضحايا . كما أضاف إلى قضية الاستقلال قضية التناقض الطبقى أى تحالف الطبقات الوطنية ضد البورجوازية الزراعية . وبالرغم من ذلك فقد حققت هذه الطبقة البورجوازية ؛ المكاسب الكثيرة بسبب الثورة وعلى حسابها . . . وقد انعكست هذه السيطرة الاقتصادية على المناخ السياسى . فتآمرت السراى وأصحاب المصالح الحقيقية مع قوات الاحتلال على الإطاحة بالحياة النيابية والقضاء على الدستور — من الناحية الفعلية . وممارسة الحكم إرهابياً . أما الحريات العامة التى تضمنها الدستور (١٩٢٣) فقد تمخضت عن تعبير أجوف لعدالة شكلية . فالحرية ذريعة الطبقة المُسْتَغِلّة للاستغلال ، ولا شأن للجماهير الكادحة من المنتجين بالحرية ولا شأن للحرية بها . . . بمعنى آخر اتخذت « وقاية النظام الاجتماعى » وسيلة لكبح جماح الآراء التى كانت تنشد « العدلة الاجتماعية »[٥٥] وهذا التحليل للواقع الاجتماعى للبورجوازية الزراعية يلقى أضواء على تجربة كمال الأيديولوجية بوصفه ممثلا لجيل مأزوم ومعبراً عن القوى الشعبية الوطنية.

ويموت سعد زغلول فيهز موته كمال من الأعماق « النفى والثورة

---

(٥٥) فؤاد أمين : الفكر القانونى فى ثورة ١٩١٩ ، مجلة الكاتب ، أبريل ١٩٦٩ ، صفحة ١٤ — ١٥ .

والحرية والدستور مات صاحبها : كيف لا يحزن وخير ما فى روحه من وحيه وتربيته ا » (٥٦) كان موت سعد زغلول بمثابة نعى لعقيدة كمال السياسية وبداية لاغتراب الأيديولوجى . « لقد فقد فى الصدمة الأولى حبه العاطفى ، وفقد فى الصدمة الثانية حبه القومى ، وكلاهما كان نقطة ارتكاز موجهة لأبرز انطلاقات السلوك الفكرى والموقفى بالنسبة إلى شخصية « كمال » فى السكرية ... ولقد هز موتهما — موت حبه القومى وحبه العاطفى — جانباً كبيراً من قيم وجوده : الأمل ، والتفاؤل والخطوة الزاحفة إلى المستقبل فوق معبر من الطموح والثقة بالنفس » (٥٧) .

* * *

استمر كمال ، الغريب الشكاك فى منفاه الفكرى يشارك فى الأعياد الوطنية ولكن ليس بالحرارة والقوة التى كان عليها فيما مضى بدأ الشك يزحف على إيمانه بالقيم فيهزها فى عمقها المستكن فى صدره والمتغلغل فى حناياه . ومضى يتساءل أهذا الشعب الذى استكان للطغاة فى سلبية مثيرة هو ذلك الشعب الذى كان كل اهتمامه ينصب على مشكلة الدستور ، والأزمة الاقتصادية ، والموقف السياسى والقضية الوطنية : لكن كمال أصبح يشعر أن كل شىء يبدو لاقيمة له : وكلما واجه هذا الشك فى حياته زعزعه القلق . ولكن ليس هناك موضع فى حياته يخلو من تناقض وبالتالى من قلق : إن إيمانه بالشعب بدأ يعتريه الشك « إن قومه فى حاجة دائمة إلى الثورة ليقاوموا موجات الطغيان التى تترصد سبيل نهضتهم . « اليوم توفيق نسيم وأمس إسماعيل صدقى وأول أمس محمد محمود تلك السلسلة المشئومة من الطغاة التى تمتد إلى ما قبل التاريخ ، كل ابن كلب غرته قوته يزعم لنا أنه الوصى المختار وأن الشعب قاصر » (٥٨)

---

(٥٦) قصر الشوق : ص ٤٦٤ ، ويتحدث نجيب عن موقع سعد فى نفسه والمصاب الجلل الذى حدث بوفاته . اقرأ الحديث ص ٢٦ ، ص ٢٧ من مجلة الكاتب ، العدد ٩٧ ، أبريل ٦٩ . ونجيب يكشف فى الحديث المذكور عن الصلة الروحية بينه وبين بطلة كمال .

(٥٧) أنور المعداوى : الآداب ... ص ١١ .

(٥٨) السكرية : ص ٤٥ .

ومن خلال هذا التسجيل النفسى والتاريخى ، يتخذ نجيب من شخصية بطله كمال ، إحدى اللافتات المضيئة التى تشير إلى منعطفات الدروب الاتجاهية ، بالنسبة إلى جيل بدأت خطواته وهى ثابتة ثم انتهت وهى متعثرة ، لأن رصيده من أسلحة المقاومة لم يكن متكافئاً مع رصيد أعدائه من أسلحة التمع والإرهاب » (٥٩) .

• • •

إن كمال فى حاجة إلى الإيمان المقرون بالعمل حتى يصل إلى درجة التوازن الوجدانى والعقلى . وهذا الإيمان الضائع هو لب غربة كمال ، لكن بم يؤمن ؟ .. هـذه هى المشكلة إنه لايبحث عن اليقين الميتافزيقى فهو فى شك من الدين . لقد وجد أحمد وعبد المنعم شوكت طريقهما فى اليمين واليسار أو الانتماء للدين والانعطاف نحو الاشتراكية العلمية فلسفة وسلوكا . لكن كمال الشكاك فى منفاه الفكرى ، كيف يخلق لنفسه هذا الإيمان ؟! وهو المتمرد ، الحائر إلى الأبد ! « كان يؤمن بحقوق الشعب بقلبه ، وإن كان عقله لا يدرى أين المفر ، عقله يقول أحياناً ، «حقوق الإنسان» وحينا آخر يقول بل « البقاء للأصلح وما الجماهير إلا قطيع» وربما قال « الشيوعية أليست تجربة جديرة بالاختبار » (٦٠) ويعيب عليه صديقه « رياض قلدس » ويلومه لأنه قارىء بلا موقف : « تقرأ وتفهـم مؤرخ بلا تاريخ ، أرجو أن تعد يوم خروجك من هذا الموقف يوم عيد ميلادك السعيد » (٦١) ويقول له إن الإيمان إرادة لا علم « ما معنى هذا ؟ ! إنها تلميحة من رياض إلى افتقاد كمال القـدرة

---

(٥٩) المعداوى : المرجع السابق ، ص ١١ . ويقول نجيب أنا أمثل جيل النكسات التى حلت فى أعقاب الثورة (١٩١٩) . نتيجة لاتحاد الإنجليز والسراى الملكية وبعض أحزاب الأقلية ضد القوى الشعبية ، وما انتاب هذه القوى من ضعف نتيجة الصراع . الكاتب ، المرجع السابق ، ص ٣٠ .

(٦٠) السكرية : ص ١٢٥ .

(٦١) السكرية : ص ١٨٠ .

على الانتقال من النظر إلى العمل ، من القول إلى الفعل ، من الفكر إلى الواقع ، لكن كمال لم يرزق ذلك التزاوج العظيم بين الآراء والأفعال الذى وهبه أخوه فهمى ، فهو يقضى حياته نهبا لشتى العواطف المتضاربة والواقع أن هذا التمزق ، وإن كان الفشل العاطفى هو السبب الأصيل للوقوع فريسة له ، إلا أننا نجد بدايات الحيرة فى موقفه الأول وهو حدث صغير إذ يسب الإنجليز فى البيت ويصادق جنودهم فى الشارع ، ثم تكررت حادثة الهرب من رصاص المعتدين مرتين فى حياته : لجأ فى المرة الأولى إلى دكان بائع البسبوسة ولجأ فى المرة الثانية إلى مقهى ظل فيه ساعات حتى زال خطر الموت ، فخرج من المقهى وهو يحاول أن يتذكر اسم بائع البسبوسة الذى لجأ إليه وهو طفل. معنى هذا أن كمال كان من يومه نهبا لشتى العواطف المتضاربة » .

يقول له رياض : « — إنك تعانى أزمة فريدة ، كل ما عندك مزعزع الأركان عبث وقبض الريح ، نضال أليم مع أسرار الحياة والنفس ، وملل وسقم ؛ إنى أرثى لك » ويضيف قائلا : « انك توحى لى بشخصية الرجل الشرقى الحائر بين الشرق والغرب ، الذى دار حول نفسه كثيراً حتى أصابه الدوار » (٦٢) ويناجى كمال نفسه : « يتكلم عن الشرق والغرب ولكن من أين له أن يعرف عايدة : قد تكون السعادة متعددة الجوانب » (٦٣) وكمال يقول إنه من المستحسن دائماً أن يتأمل الإنسان ما يراود نفسه من أحلام على ذلك فالتصوف هروب ، كما أن الإيمان السلبى بالعلم هروب ، وإذن فلابد من عمل ، ولابد للعمل من إيمان ، والمسألة هى كيف نخلق لأنفسنا إيمانا جديرا بالحياة(٦٤) وقال له أحمد شوكت قبل نقله إلى المعتقل ، وهو فى سجن القسم ، : إن الحياة عمل وزواج وواجب إنسانى عام » وما ذلك الواجب الإنسانى العام إلا العمل الدائب على تحقيق

(٦٢) السكرية : ص ٢٢٧.
(٦٣) السكرية : ص ٢٢٧ .
(٦٤) السكرية : ص ٣٩١.

إرادة الحياة ممثلة فى تطورها نحو المثل الأعلى . وقد فهم كمال هذا القول على أنه دعوة للإيمان بالعمل الإيجابى أيا كان مشربه . إدرك أنه من العسير « أن يعيش المرء فى قمقم أنانيته ثم يكون سعيدا فى الوقت نفسه . وظلت مشكلة الإيمان الإيجابى المتمثل فى العمل الثورى قائمة بدون حل « لانسخر منى ؛ إن مشكلة الإيمان مازالت قائمة بدون حل ، وغاية ما أستطيع أن أعزى به نفسى هو أن المعركة لم تنته ، و لن تنتهى ولو لم يبق من عمرى إلا ثلاثة أيام »(٦٥)

إن كمال يعزى نفسه بأن المعركة لم تنته بعد ، وعلى حين قطع أحمد العقدة التى تشل خاله كمال على الحركة والعمل ، فقد قرر النزول إلى المعركة إذ أنه يؤمن بالحياة وبالناس ، ويرى نفسه ملزما بالثورة على مثلهم ما دام يعتقد أنها الحق اذ النكوص عن ذلك خيانة ، وهذا هو معنى الثوره الابدية «(٦٦) ويناجى كمال نفسه وهو يعلق على قول أحمد « وقد تسأل ما الحق وما الباطل ولكن لعل الشك نوع من الهروب كالتصوف والإيمان السلبى بالعلم ، فهل تستطيع أن تكون مدرسا مثاليا وزوجا مثاليا وثائرا بديا » أ(٦٧) ونسى كمال أن معايشة التجربة شئ ، ومراقبتها من الخارج شئ آخر وأن الإيمان ليس بالتمنى وإنما هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل وهذا هو ما عجز كمال عن الوصول إليه رغم وعيه الإنسانى به : إن أحمد يقول « إن الإنسان قد يسعد بما هو زوج أو موظف أو أب أو ابن ولكنه مقضى عليه بالمتاعب أو بالموت نفسة بما هو إنسان : وسواء أقضى عليه بالسجن هذه المرة أم أطلق سراحه فباب السجن الغليظ المتجهم هو ما يتراءى لعينيه فى أفق حياته . وعاد يتساءل : ماذا يدفعنى فى هذا السبيل الخطير الباهر . إلا أنة الإنسان الكامن فى أعماقى ، الإنسان الواعى لذاته المدرك لموقفه الإنسانى التاريخى العام ، وإن ميزة الإنسان على سائر المخلوقات هى أنه يستطيع أن

(٦٥) السكرية : ص ٣٩٣ .
(٦٦) السكرية : ص ٣٩٢ .
(٦٧) السكرية : ص ٣٩٥ .

يقضى على نفسه بالموت بمحض اختياره ورضاه »(٦٨) وهذا المفهوم عن الواجب الإنسانى لايغيب عن كمال وإنما يصاب كمال بالحصر Anxiety عندما يتحول من الفكر إلى الواقع العملى .

كمال بين التمرد الميتافيزيقى والإيمان بالعلم :

أما الاحتكاك الثانى لكمال فكان احتكاكا ثقافيا ، وقد فتحت دراساته الفلسفية عينيه على عالم جديد تماما ، فأصبح من اتباع الدين العصرى —العلم— وتنكب ذلك الدين التقليدى الذى علمته إياه أمه(٦٩) .

وتبدأ أزمة كمال الفكرية بتمرده على رغبة أبيه فى إلحاقه بمدرسة الحقوق واصراره على الالتحاق بمدرسة المعلمين(٧٠) حيث يجد فيها متنفسا لأشواقه الروحية والفكرية التى جلق فيها وهو يقرأ الفلسفة : فهو يؤمن بأن حياة تكرس للفكر لهى أجل حياة . وكان يعيش بقلبه فى عالم المثال كما ينعكس على صفحات الكتب(٧١) . ولم يلبث أن نشب صراع فى نفس كمال بين التراث الدينى وبين ما تلقاه وحصله من ثمار الفلسفة العلمية الحديثة . فى دوامة هذه الأزمة عاش كمال وبدأ يكتب فى نظرية التطور : تساءل عن آدم والله والقرآن . قال لنفسه مرة وعشرا « القرآن إما أن يكون حقا كله

---

(٦٨) السكرية : ص ٣٨٥ .

وهذا الموقف الذى انتهى إليه كال يثير قضية « البطل الثورى » عند نجيب . فكمال هنا هو حل طه فى القاهرة الجديدة . ونقف لنتساءل هل من جديد بالنسبة لموقف البطل الثورى— بالتحديد ممثل اليسار — من المجتمع وقضاياه . إن على طه شخصية ثابتة غير متطورة سجلها نجيب جنباً إلى جنب مع ممثل اليمين « مأمون رضوان » ولم يحسم أو يرجح كفة أحدهما . ونواجه بعلى طه فى الثلاثية فى صورة كمال ، وهنا نجد أن البطل الثورى ، رومانسى ، مشلول الإرادة يفتقر إلى الفعل ، مصاب بالحصر . الجديد فى الموقف هو شخصية أحمد شوكت الذى يعد الامتداد الفكرى لكمال . هذا هو المنحنى الأيديولوجى لكمال من القاهرة الجديدة إلى الثلاثية .

(٦٩) الاب ج . جوميه ، المرجع السابق ، ص ٨٠ .

(٧٠) قصر الشوق : ص ٥٤ وما بعدها .

(٧١) قصر الشوق : ص ٥٦ .

أو لا يكون قرآنا » . على أن قلبه مفعم بالألم « ألم الحب الخائب وألم الشك وألم العقيدة المحتضرة ، إن الموقف الرهيب بين الدين والعلم أحرقك ولكن كيف يسمح عاقل أن يتنكر للعلم » (٧٢) لقد ثبتت عقيدته طوال العامين الماضيين أمام عواصف الشك التي أرسلها المعري والخيام ، حتى هوت عليها قبضة العلم الحديدية فكانت القاضية . « على أنني لست كافرا ، لازلت أؤمن بالله ، أما الدين ... ، أين الدين ، ذهب كما ذهبت رأس الحسين ، وكما ذهبت عايدة وكما ذهبت ثقتي بنفسي » (٧٢) لقد تعذب كثيراً ولكنه لن يقبل أن يفتح قلبه من جديد للأساطير والخرافات التي طهره منها . كفى عذابا وخداعا ، لن تعبث بي الأوهام بعد اليوم ... ونور الله ، أليس هو نور الحقيقة ، بلى . ، وسيكون في تحرره من الدين أقرب إلى الله مما كان في إيمانه به ، فما الإيمان الحقيقي إلا العلم ... ولو بعث الأنبياء ما اختاروا سوى العلم رسالة لهم »(٧٤) .

سأله اسماعيل لطيف ،

ـ خبرني ألا زلت تصلي ، . وهل تنوي أن تصوم رمضان القادم ،

« ـ لم أعد من المصلين ، ولن أكون من الصائمين » (٧٥) ويعلق «إسماعيل» ـ كنت متدينا عميقا ، وأنت الآن ملحد عنيف ، دائما عنيف قلق كأنك مسؤول عن البشرية . الحيـــاة أبسط من هذا كله مركز في الحكومة يرضي النفس ويهيئ مستوى لا بأس به من المعيشة ، استمتاع بلذات الحياة بقلب متفتح خال من الهموم ، استمساك بقدر من القوة والاعتداد عند اللزوم يضمن لك الكرامة والفوز ، فاذا وافقت هذه الحياة الدين فيها ونعمت ، وإلا فذنيه على جنبه » ، لكن هذا القول يقع من نفس كمال الغريب ، موقعا غريبا فيناجي نفسه ، « الحياة أعمق وأعرض من أن

---

(٧٢) قصر الشوق : ص ٣٧١ .

(٧٣) قصر الشوق : ص ٣٧٢ .

(٧٤) قصر الشوق : ص ٣٧٥ .

(٧٥) قصر الشوق : ص ٣٨٠ .

تنحصر فى شيء واحد ولو يكون السعادة نفسها ، اللذة ملاذى ، ولكن ارتقاء الجبال الوعرة سيظل مطلبى ، عايدة ذهبت فيجب أن أخلق عايدة أخرى بكل ما ترمز إليه من معان ، وإلا فلتذهب الحياة غير مأسوف عليها » (٧٦) .

والواقع أن أزمة كمال الفكرية لا تنفصل عن تطور الفكر المصرى المعاصر الذى أخذ يقترب نحو العقلانية والعلمية ويقوم على الاقتراب من الواقع ورفض – من جانب تيار علمانى لايستهان به – للجوانب الغيبية فى تراثنا القديم (٧٧) . ويأتى كمال ليحمل على كتفيه الهموم الفكرية لجيله – وهو هنا يعبر عن الأزمة الفكرية للواقع المصرى ، لكن ليس هذا كافيا لتفسير الانقلاب الدينى أو الميتافيزيقى فى حياة كمال الروحية ، بل هناك عوامل نفسية تعمق من فهمنا لعلة هذا التحول الخطير وتلتقى فى الوقت نفسه ، مع التيار العلمانى الذى بدأ يزحف على الحياة العقلية فى مصر .

وقد تبين لنا – من خلال معايشتنا لكمال – مدى عمق الجذر العاطفى المتغلغل فى حنايا قلب كمال . وقد كان ذلك من العوامل التى أحدثت الانقلاب الدينى عنده ، بدأ من ضمور هذا الشعور الدينى ثم ذبوله وموته تماماً فى قلب كمال واحلال « العلم » بديلا يقوم بالوظيفة التى كان يقوم بها « الدين » .

ومعلوم أن تطور الشعور الدينى يتم فى إطار تطور نفسية الفرد ، ولا ينعزل بأى حال عن تطور الشخصية من حيث هى قوة ديناميكية فى مجتمع ينطوى على مجموعة من القوى الديناميكية المتشابكة (٧٨) وكمال ليس شابا عادياً بل هو ممن يهيمون بالفكر وبالنظر فى الأشياء . وهو ممن يتطلعون إلى الوصول إلى التوازن الوجدانى والعقلى بين ذواتهم وبين العالم الخارجى .

---

(٧٦) قصر الشوق : ص ٣٨٦ .

(٧٧) د. حسن حنفى ، التجديد والترديد فى الفكر الدينى المعاصر ، العدد ٦٢ ، أبريل ١٩٧٠ ، ص ٢٩ .

(٧٨) د. عبد المنعم المليجى : تطور الشعور الدينى عند الطفل والمراهق ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٥ ، ص ٣١٨ .

ويقدم د. عبد المنعم المليجي تحليلا نفسياً للانقلاب الديني في حياة المراهق ربما ألقى بعض الضوء على أزمة كمال الفكرية . يقول : « ... أن المراهق الفيلسوف ليس ساعياً إلى الإيمان بالله فحسب ، وإنما إلى شيء أوسع من ذلك مدى ، إلى مذهب ينتظم جوانب الكون كله ، إلى رأى نهائي بغيره لا يستقيم التناسق ولا يتم النظام في الكون . إن المراهق يتطلب من الله أن ينظم العالم كيفما يحلو له ، وإلا فالإيمان به في خطر... فعن طريق الإلحاد ينكشف بغض المراهق للسلطة التي استبدت بعقله وقلبه زمناً طويلا . (وهى سلطة وثيقة الصلة بالسلطة الوالدية التي يسعى إلى التحرر منها بدورها) ، ذلك البغض الذى يعد عنصراً ضرورياً في تكوين الشعور المزدوج ambivalent نحو الله أو الأب . . والإلحاد قبل سن العشرين ليس إلحاداً ، ولكنه شك في عدالة الله ، شك هو مظهر لاتجاه تشككي عام في قيمة الحياة عموماً » . ويقصد بالإلحاد « الإنكار التام لوجود الله ، وإحلال إيمان آخر محل الإيمان به ، أو اتخاذ موقف انكارى على الإطلاق . والحالة الأولى يسودها السلام النفسي ، أما الثانية فحالة صراع وقلق لا تختلف في ذلك عن حالات التشكك » . هذا يفسر لنا اتساع دائرة الشك عند كمال والتى بدأت بالدين ثم اتسعت لتشمل العلم ثم الفلسفة . وبتحرره من سلطة الأب المستبد وتحرره من أسر العبودية التى كبلته بها عايدة محبوبته . وتغير نظرته إلى الله وإلى الأشياء . فالمرجح إذا أن كمال لم ينقلب في إلحاده إلى الإنكار التام لوجود الله إذ أنه بقى نهبا لصراعات متضاربة بين التمرد الميتافيزيقى والإيمان بالعلم ثم الشك في العلم والفلسفة معا . بل أمعن في شكه في كل شيء حتى في ماهية الحياة وغايتها . وكما أن « للخبرات الطفلية الأليمة ، والأحداث الراهنة ، أثرها في تشكيك المؤمن في عقائده وانحيازه إلى النزعة اللادينية فإن للثقافة العلمية والفلسفة أثراً لا يقل شأنا في إثارة الشكوك . فهى قد توفر للمراهق من المثل العليا وضروب اليقين ما يستعيض به المراهق عن مثل الدين ويقيناته . ولذلك نلاحظ ارتفاع

نسبة المتشككين مع إرتفاع المستوى الثقافى » . . وأن ثقافات بعينها ترتفع فيها نسبة التشكك والإلحاد كالدراسات الفلسفية فإن اختيار المراهق لهذه الدراسة بالذات قد يكون نتيجة لشكوك سابقة يبغون تسويتها على نحو من الانحاء ، فإن كانوا يشكون لأنهم يدرسون الفلسفة ، فهم كذلك يدرسونها لأنهم يشكون .

ولكننا نلاحظ أن التحول عن الدين لا يسير بسرعة التقدم العلمى ، انما لكل منهما إيقاعه Rhythm الخاص ، إن الآراء العلمية تغزو أول ماتغزو — عقل المرء ، ولا تتغلغل فى كيانه الانفعالى إلا بعد وقت ليس بالقليل . وحيث أن للشعور الدينى لدى الفرد تاريخاً طويلا ، وحيث أنه متغلغل فى حياته ، وجذوره تتشبث بأعماق نفسه ، فلا بد له كى يتخلى عن إيمانه من أجل طويل . « إن الفرد لا يتخلى عن عقائدة بمجرد أن تغزو الأفكار الحرة ذهنه ، لأن دوافع فى أعماق نفسه تعرقل تحررة الدينى ، ورغبات فيها تشبعها تلك العقائد ، وليس من اليسير التضحية بها إرضاء لمطالب عقلية على سطح الحياة النفسية ، ولأن المسألة ليست استبدال شىء بآخر ، إنما هى تحول كلى للنفس برمتها من اتجاه إلى اتجاه مغاير وليس يكفى كى يتم هذا التحول أن تدخل الذهن بعض أفكار علمية باردة أو معادلات رياضية مجردة . .

ونحن نعلم أن المراهق — برغم إطلاقه العنان لتفكيره واستطلاعه — يرى العالم من خلال مشاعره وتصوراته ، وتفكيره لا يتجه وجهة موضوعية إلا بعد أن يتجاوز تقلبات المراهقة . ولذلك كانت تعوزة المرونة والدقة : إذا استنتج ، أمعن فى الاستنتاج ، وطمع فى الوصول إلى نتيجة مطلقة قاطعة ، وخفى عليه ما قد ينطوى علية الاستنتاج من شطط أو تناقض . . . ولذلك ما أن يقع على مبدأ علمى أو مذهب فلسفى يرضى طلعتة ونزعتة إلى التحرر ، حتى يتحمس له تحمساً هو أقرب إلى التعصب منه إلى الاقتناع العلمى الرزين . فإن كان يفيد من الثقافة العلمية الموضوعية أو الأفكار الفلسفية المتحررة ، فهو لا يفيد اتجاهاً موضوعياً أو منطقيا فى التفكير ، بل يفيد

منها ما يؤيد طموحه إلى عقيدة مطلقة ، ورأى نهائى . وليس يخاف علينا إنتشار كتب وآراء بعينها بين جمهور المراهقين فى الشطر الأخير من المراهقة ، من أمثال داروين ونيتشه وماركس ، وليس يخاف كذلك كيف أن كتابات هؤلاء كانت لدى بعض المراهقين بمثابة كتب مقدسة تحتل فى نفوسهم ما تحتله الكتب السماوية لدى المؤمنين من مكانة رفيعة »(٧٩) . هذا التحليل يلقى أضواء على الانقلاب الدينى عند كمال .

سأله رياض : « — تتبعت مقالاتك منذ سنوات ... فادركت أنك مؤرخ ، بيد أنى حاولت عبثا أن أهتدى إلى موقفك أنت مما تكتب ، وأى فلسفة تنتهى إليها ... »

قال كمال « — إنى سائح فى متحف لا أملك فيه شيئاً ، مؤرخ فحسب ، لا أدرى أين أقف ...

فقال له رياض ... ألم تعرف ألوانا من الإيمان قبل موقفك هذا ... »

قال كمال — كان لى إيمانى الدينى ، ثم إيمانى بالحقيقة ..

— أذكر أنك عرضت الفلسفة المادية بحماس يدعو للريبة ..

— كان حماسا صادقا ثم لم البث أن حركت رأسى مرتابا ..

— لعلها الفلسفة العقلية

— ثم لم البث أن حركت رأسى مرتابا ، الفلسفات قصور جميلة هادئة ولكنها لا تصلح للسكنى ...

— هنالك العلم فلعله نجا من شكك

— أنه دنيا مغلقة حيالنا لا نعرف إلا بعض نتائجها الغريبة ، ثم أطلعت على آراء نخبة من العلماء يرتابون فى مطابقة الحقيقة العلمية للحقيقة الواقعية ، وآخرين ينوهون بقانون الاحتمال . وغيرهم ممن تراجعوا عن ادعاء الحقيقة ، فلم البث أن حركت رأسى مرتابا .

---

(٧٩) د. عبد المنعم المليجى ، المرجع السابق ، صفحات ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ .

فابتسم رياض قدس دون أن ينبس فعاد الآخر يقول :

– حتى المغامرات الروحية الحديثة وتحضير الأرواح غرقت فيها حتى أذنى ، ودار رأسى ، ومازال يدور فى فضاء مخيف ، ما الحقيقة ؟ ما القيم ؟ ، ما أى شىء ؟ ، إنى أحياناً أشعر بتأنيب ضمير لفعل الخير كالذى أشعر به عند الوقوع فى الشر ... »(٨٠) ومن عجب أن كمال وهو الذى كان يتساءل كيف يسع عاقل أن يتنكر للعلم – كان العلم وقودا لشكه مثل الدين والفلسفة المادية . ويبدو أن كمال لم يفرق بين « الفكر الدينى » و« التفكير الدينى » . فالأول نمط من أنماط الفكر ، أما الثانى فهو التأويلات المختلفة للدين عبر التاريخ ولذلك فهو نتاج لحظة تاريخية معينة يظهر فيها الفكر الدينى متشيئا بما سواه من الإنتاج الفكرى للعصر ، فلسفة كان أم علما .

ويبدو أن مفهوم كمال عن الدين والعلم انبثق من فهمه الخاص للعداء بين الدين والعلم : وهذا المفهوم جاء – على الأرجح – متأثراً بميراث الحضارة الأوربية والفكرة البورجوازية الأوروبية عن العلم والدين . إذ كان الدين المسيحى فى هذه الحضارة أقرب إلى الأسطورة والغيبيات والأسرار التى تند عن العقل . وكان العلم فيها حاملا لواء التقدم وواضعاً أسس العقلانية والتجريب العلمى . ومن ثم كان التعارض بينه وبين التراث الدينى المسيحى المنحدر من العصور الوسطى . ومن هنا ارتبطت البورجوازية بالعلم واتسم الفكر البورجوازى الأوروبى بعدائه للدين إذ أنه – بالنسبة له – معوق عن التقدم ولأنه من جانب آخر يمثل سلطة الكنيسة . **فالثورة على الدين ثورة على الكنيسة وهيمنتها على العقل الأوربى .**

مفهوم كمال عن العلم والدين – وفق ما سبق مفهوم بورجوازى أوربى . أما فى الحضارات الشرقية القديمة الهندية أو الصينية أو المصرية فلم

---

(٨٠) السكرية : ص ١٢٤ – ١٢٦ .

يكن هنالك تعارض بين الدين والعلم « بل كان الدين هو أساس العلم ، وكان الدين باعثا على البحث العلمى ، وكان العلم هو المحقق لغايات الدين كما يدل على ذلك فن التحنيط عند قدماء المصريين » . وفى تراثنا القديم لايوجد تعارض بين الدين والعلم وإنما وجد تعارض من نوع آخر ، حول عملية التفكير الدينى بين الفقهاء والمتصوفة والمتكلمين والفلاسفة »(٨١) .

« وهذه المراحل التى مر بها كمال إلى أن وصل إلى قمة غربته هى محاولة لقهر العزلة . يقول برديائيف إن « اشتياق الإنسان إلى المعرفة تعبير عن محاولته للتغلب على العزلة . وطلب المعرفة ينطوى على اشتياق للذات الأخرى ، وللآخرين ، وينطوى على امتداد غير عادى من الذات والوعى »(٨٢) ويقول عبد العزيز مخاطبا كمال :

« — أنت أعزب فى فكرك كما أنت أعزب فى حياتك

وراقبه كمال إلى هذه الملاحظة العابرة باهتمام ، ترى أعزوبته نتيجة لفكره أم العكس هو الصحيح ، أم أن الأثنين نتيجة لشىء ثالث »(٨٣) . هذه الملاحظة أشبه بالميكروفيلم لحياة كمال التى عشناها معه . فالفكر الأعزب والحياة العزباء وجهان لحقيقة واحدة هى « الاغتراب » . وهى ميكروفيلم نرى من خلاله المنحنى الشخصى لكمال وما طرأ عليه ، وعلى المجتمع المصرى ، من تغير ، فى الفكر والوجدان ، والسياسة والشعور الطبقى . لقد هزم كمال فى صراعه الطبقى ضد عايدة ، وهزم الشعب — بعد وفاة سعد — فى صراعه القومى ضد الإنجليز والسراى والبورجوازية الزراعية الكبيرة . ثم رأيناه يهجر أزمته العاطفية والعقلية تبعاً لذلك . ومن جانب آخر تكشفت لكمال حقائق أصابته بعزوف باطنى عن المشاركة الإنسانية فى مجتمع سادة التخلف الاجتماعى والإنحلال الخلقى . لقد أدرك أن الثقافة لا كرامة لها فى بلده .

* * *

(٨١) د. حنفى ، التجديد والترديد ... ص ٣١ ، ٣٣ — ٣٤ .

(٨٢) برديائيف العزلة والمجتمع ... ص ١٢١ .

(٨٣) السكرية ص ١٢٦ .

والبناء الروائى للثلاثية يقول جملة أشياء تتصل بماهية البطل فى هذ العمل الفنى الضخم . ويمكننا أن نقدم ثلاثة مفهومات تلقى أضواء على مشكلة البطل فى الثلاثية . وهذه المفهومات يصعب الفصل التام بينها . فيمكن النظر إلى « الزمن » بوصفه البطل الحقيقى وراء هذا العمل وهذا المفهوم يقرب من التجريد الفلسفى . أو ننظر إلى كمال بوصفه البطل الإنسانى ، وهذا المفهوم لايغفل القيم الفكرية التى عبر عنها كمال — والتى تعتصم بالعقل والعلم — وتدعو إلى العقلانية ، هذه القيم آتت أكلها فى حينها ، فى الجيل التالى لكمال . جيل أحمد شوكت . وهذا المفهوم لايقتصر على النظر إلى القيم الفكرية الواعدة بل يضمن التعبير عن مشكلة الإنسان — لغز الألغاز — الروحية وبحثه الدائب عن التوازن الوجدانى والعقل . وهذا ماخلدته ريشة نجيب محفوظ فى شخصية « كمال » . وهذا المفهوم يخلق تواصلا بيننا وبين البطل . « كمال » لأننا نشعر أن الأزمة الفكرية والوجدانية بعض من بليتنا . وهذا ما يميل إليه الكاتب فى هذه الدراسة . وكمال هنا تأتى بطولته بالمعنى التقدمى الثورى فى تمهيده وتبشيره بقيم الغد .

أما المفهوم الثالث فهو يجمع بين التجريد الفلسفى والتخصيص الإنسانى ، أعنى فكرة « التغير الاجتماعى » ، فهذه الفكرة بقدر ما تحلق بقدر ما تحدق . ووفق هذا المفهوم نجد أن « بطل الرواية هو المجتمع المصرى فى السنوات ما بين قبيل الحرب العالمية الأولى ومنتصف الحرب العالمية الثانية وأن الحادثة الرئيسية فى هذه الرواية هى سير الزمن ، وتأثير هذا السير على أجيال عدة من المصريين عاشت بين هذين المعلمين الكبيرين من معالم التاريخ الحديث ، وأن القصة التى تكمن وراء الرواية هى قصة أسرة السيد أحمد عبد الجواد ، وما يحدث لها ولأصهارها وتابعيها وأصدقائها فى هذه الحقبة من التاريخ »(٨٤) . وكما ذكرت فهذه المفهومات الثلاثة

---

(٨٤) د. على الراعى ، المرجع السابق ، ص ٢٤٩ .

تلقى – مجتمعة – الأضواء على مشكلة البطل فى الثلاثية وتزيدنا فهما ومتعة بهذا العمل الأدبى .

أما عن باقى الشخصيات فكما لاحظ – بحق – الدكتور على الراعى أن هناك توازنا تاما فى رسم الشخصيات يتم « على ضوء اعتبارين اثنين :–

١ – التركيب الداخلى للشخصية (بما فى هذا من أثر لكل من الوراثة والعادات والأفكار المكتسبة) .

٢ – تفاعل هذا التركيب مع البيئة المحيطة من أشخاص وأشياء وحوادث .

فالشخصية الواحدة فى عالم الثلاثية لا تسير وفق أهوائها ، ولا حتى – لو دققنا النظر – وفق المشيئة المطلقة للمؤلف بل هى تتبع واحداً أو أكثر من محتملات التصرف ، كلها موجود فى بنائها منذ البداية . مريم مثلا ، الفتاة الغزلة التى لا تتردد فى أن تشاغل وتقبل كمال صبيا ، ماذا يمكن أن تصبح ؟ أختار لها المؤلف أن تنتهى مديرة بار ، وكان يمكن أن يجعلها فتاة من فتيات الهوى أو تاجرة أعراض أو غير ذلك من الأعمال التى تعتمد على التعامل بفتنتها أو فتنة الأخريات .. أى عمل فى دائرة الهوى ، ولا شىء غير هذا . . . فاذا بحثنا فى حياة مريم عن ظروف محيطة تشجع فيها ميلها إلى التبرج والتهتك وجدناها فى مسلك أمها ، و مغامراتها مع السيد أحمد عبد الجواد... كل تصرف إذن من تصرفات الشخصيات فى الثلاثية ، مقدر ومحسوب حسابه ، إنه ينبع طبيعيا من مقدمات سبقت واستتبعت نتائج بعينها ، لا مفر منها . « ونتيجة لذلك اتسم بناء الشخصيات بالثراء والغنى فى حياتها الداخلية والخارجية »(٨٥) . ونجح الكاتب فى أن يخلق لكل شخصية ثابتة – ولا ضير فى هذا – وظيفة معينة خاصة بها ، الأم « أمينة » مثلا التى تخاطب زوجها السيد أحمد « ياسيدى » تجنيا للعبودية ! أين هى من سوسن زوجة أحمد شوكت التى تشاركه حياته فكرا ووجدانا . ومع هذا « فهذه الوظائف

---

(٨٥) المرجع السابق ص ٢٤٧ .

الصغيرة مهندسة كلها ، بحيث تخدم الهدف العام للرواية ، فى نفس الوقت الذى تؤدى فيه وظيفتها العادية ، بالنسبة للحادثة أو المناسبة التى ذكرت فيها . فهذه الشخصيات — على حدة — تعد ثابتة ، بوظائفها المحددة إلا أنها تؤلف — مجتمعة — عملا واحدا ، ناميا متطورا ، وهذا النمو والتطور ينبع من التطور الاجتماعى العام . فنحن عندما نعرف أن سوسن تشارك زوجها فى عمله وكفاحه ندرك أن هناك مسافة زمنية بينها وبين « جيل » أمينة الأم — فى هذه المسافة يقول لنا العمل الفنى ويشى لنا بأن المرأة قطعت أشواطا كبيرة فى طريق التحرر والاستقلال . وقل مثل هذا فى باقى الشخصيات .

لقد نجح نجيب فى أن يقدم شخصية « كمال عبد الجواد » إلى الأدب الإنسانى بحيث يقف جنبا إلى جنب مع النماذج البشرية التى خلدها أعلام الرواية الحديثة :

أبطال الاغتراب صوت العصر

وبعد أن فرغنا من معالجة ثلاثة نماذج روائية تمثل اغتراب المثقف المصرى ، نحاول هنا أن نلقى أضواء على أبعاد الأزمة . يمكن أن نقول أن نسيج أزمة هؤلاء الأبطال يتألف من ثلاثة عناصر رئيسية متشابكة :

١ — المشكلة القومية التحريرية .

٢ — المشكلة الاجتماعية الاقتصادية .

٣ — القلق المترتب على المشكلتين السابقتين .

إن مشكلة أبطال الاغتراب — وهى فى الحق مشكلة كل مثقف يعى ذاته ولايكتفى بالوعى بل يحاول خلق هذه الذات — تتجسد فى «القلق» .. قلق المثقفين . وبداهة لا يمكن النظر إلى جذور أزمة المثقفين إلا من خلال الواقع التاريخى المعاصر باعتبارهم ينتمون إلى دول نامية تحررت من تبعية دول مستعمرة تحرراً سياسيا ولا تزال تعانى من التبعية الاقتصادية . فما تأثير هذا الواقع الاقتصادى الاجتماعى الهابط على المثقف أو على الفرد

عموما — ووضعه الاجتماعى وعلى طبيعة موقفه من العلاقات الاجتماعية السائدة فى مجتمعه ؟ بم ينبىء هؤلاء الأبطال عن واقعهم المـادى ؟ أو واقع مجتمعهم ؟ »(٨٦) .

لقد أدرك المثقف — أن القضية ليست — قاصرة على المثقف المصرى وحده بل هى قضية كل مثقف ينتمى إلى دولة نامية — إن عليه دوراً هاما لابد من بذله فى استماتة لإعادة صياغة مجتمعه بما يكفل تحقيق هذا التوازن والتحرر من التبعية الاقتصادية وتحقيق العدالة الاجتماعية . وهو يدرك أنه غريب فى داره وأن الاستقلال السياسى ليس له مضمون طالما أن بلاده تابعة لدول أخرى تخطط لها أسلوب حياتها فى تفكيرها وأيديولوجيتها . كما أدرك المثقف أن ليس للديمقراطية ثقل مادى ملموس ما لم تقترن بإجراءات رفع المستوى الثقافى والاقتصادى للشعب .

وهذه الدول الحديثة العهد بالاستقلال — ومنها مصر — دول متخلفة اقتصاديا لا يبعد اقتصـــادها كثيرا عن الاقتصاد القبل — رأسمالى أى الاقطاعى »(٨٧) . وفى كثير منها لايبعد النظام السياسى فى جوهره إن لم يكن فى شكله عن النظام الإقطاعى . وقد حدد ذلك طبيعة العلاقات الاجتماعية التى يعد الفرد إفرازا اجتماعيا لها . وهنا تبرز وظيفة المثقف فى مجتمعه وهو **الإنسان ذو الاهتمامات بالقضايا الاجتماعية العامة لمجتمعه والذى يحدد لنفسه منها موقفا .**

وقد استغرق جهود المثقف المصرى اتجاهان رئيسيان أولهما الاهتمام ببلورة مستقبلنا الحضارى وثانيهما تحديد هوية ماضينا الحضارى .

---

(٨٦) اقرأ محمود أمين العالم : معارك فكرية ، ديسمبر ١٩٦٥ ، ص ١٠٩ وما بعدها لرسم أبعاد الاتجاهات الفكرية للواقع المصرى .

(٨٧) جورج أبى صعب ، الديمقراطية والدول الحديثة الاستقلال ، حوار ، العدد الثانى ، كانون الثانى (يناير) ١٩٦٣ ، ص ٦٠ .

والسؤال الذى نواجهه هنا : إذا أراد مجتمع أفرو آسيوى مثل المجتمع المصرى حضارة وتراثا الاستعارة المجردة للالات والتكنولوجيا ولم يأخذ بالقيم الأوربية صاحبة تلك الحضارة لأنها أجنبية عنه مضادة لطبيعته ، فكيف يربى هذا المجتمع قيما جديدة محلية محضة نابعة من واقعه»(٨٨) وهنا تبرز أزمة أبطال الاغتراب فى محاولتهم البحث عن قيم حضارية جديدة(٨٩) • ولقد تبلورت الأزمة الروحية لأبطال الأغتراب ، منذ طرحها الطهطاوى على الواقع المصرى ، هى كيف يصبح الإنسان فردا فى العالم الحديث وفى الوقت نفسه يبقى مسلما ؟(٩٠) ومن الملاحظ أن أوربا بالنسبة للشرقى المسيحى ليست كما هى الحال بالنسبة للمسلم الذى كان ينظر إلى أفكارها وإنجازاتها الحضارية نظرة متحفظة •

ومن المسلم به أن الثقافة ليست ترفا فكريا بل وظيفة اجتماعية تتجلى فى نقد الفرد والمجتمع • بمعنى أن تكون وظيفة المثقف هى نقد ما لدى المجتمع من قيم موروثة والبحث فى جوهرها وفى تطبيق الصالح منها . بيد أن للاسلام تاريخا يجعله فى آن دينا ونظرية اجتماعية كاملة •

ولقد طرح أبطال الاغتراب على الواقع المصرى أزمتهم الروحية وتتلخص فى السؤال التالى : **هل فى إمكان المثقف أن يتحول إلى رجل حديث معاصر فى عقليته وعاداته ومفهومه للكون وللمعاملات الإنسانية : وفى الوقت نفسه يبقى راسخا فى إسلامه ، أم هل على المسلم المعاصر أن يرفض الإسلام كليا أو جزئياً لكى يتحول إلى الوضع الذى أشرنا إليه ، أم هل بإمكانه أن يحدث فى تفسير دينه تغيرا أساسيا يلائم حاجاته فى هذا العصر ؟** : يقول

---

(٨٨) ب.ج.فاتيكيوتيس : المثقف العربى والمجتمع الحديث ، حوار ، العدد الرابع ، آيار – حزيران (مايو – يونيو) ١٩٦٣ ، ص ٤٣ .

(٨٩) د. شكرى محمد عياد ، الحضارة العربية ، أول أبريل ١٩٦٧ ، ص ٩١ .

(٩٠) Aourani, A. : The Arabic Thought ... P. 95.

آخر ما دور الدين فى المجتمع الحديث ؟ (٩١) . ويقول د . عبد الرحمن بدوى (وفى الدين ، حرنا الحيرة الكبرى ففريق أمعن فى التجديف والإلحاد ... وفريق تمسك بالدين وغالى إلى أبعد حد ، محاولا العودة إلى الدين فى صفائه الأول ، متأثرا خصوصاً بنزعات التجديد التى شغلت العالم العربى فى أواخر القرن الماضى أو عائدا مباشرة إلى الكتاب والسنة ... وفريق توسط بين الطرفين)(٩٢) .

وتمثل اعترافات شكرى ، اعترافات « فتى العصر » . بمعنى أنها تلقى أضواء كاشفة تنير لنا الطريق لفهم أبعاد أزمة جيل الانتكاسات التى أعقبت ثورة ١٩١٩ . إذ أن الاستمرار التاريخى لعلة ظاهرة الاغتراب ظل موجودا ، باقيا ، ضاربا بجذوره فى أنساق البناء الاجتماعى لمجتمعنا المصرى . ومن ثم ، فالباحث لا يجزم بأن اعترافات شكرى تفسر تفسيرا كاملا ظاهرة اغتراب المثقف المصرى كما أنه لا يغفل التغيرات التى طرأت على سطح المجتمع المصرى وإن ظل الإناء بلا قاع ، تغير فى الشكل الظاهرى فقط . أما قاع المجتمع فهو هو بمشاكله وهمومه التى أنعكست بدورها وأثمرت جيل الانتكاسات. ويقول « فالشاب المصرى فى حالة أمتنا الاجتماعية الحاضرة عظيم الأمل ولكنه عظيم اليأس وكل منهما فى نفسه عميق مثل الأبد والسبب فى ذلك أن حالتنا الاجتماعية تستدعى شدة الأمل وشدة اليأس وما زلت أجد بين حالة الأمة الاجتماعية وبين نفوس أفرادها رابطة متينة . والشاب المصرى يكثر من إساءة الظن وهى صفة أشتهر بها المصريون والسبب فى سوء ظنه عصور الاستبداد الطويلة التى مرت على مصر فإنها أبقت هذا الإرث فى نفوس الأفراد لأن الاستبداد يبعث سوء الظن والشاب المصرى ضعيف العزيمة كثير الأحلام والأطماع والأمانى يمضى أيامه فى الأحلام بدل أن يمضيها فى مزاولة الأعمال وكذلك الخوف فيه فإن شجاعة الشاب

---

(٩١) فايتكيوتيس : المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(٩٢) عبد الرحمن بدوى ، (هموم الشباب » .

المصرى شجاعة مبتورة شجاعة تستحى من نفسها وأما خوفه فهو مبدأ عام (وتلك آفة أبطال الاغتراب الذين يترددون بين الفكر والواقع ، بين النظر والعمل) . والشباب المصرى عنده ميل شديد إلى مزاولة الأعمال العظيمة المجيدة ولكنه يعجز عنها والشاب المصرى مهيج العواطف ولكنه غير عظيمها وهو كثير الغرور لأنه كثير الأحلام والأمانى وهو ليس عنده شىء من الاعتماد على النفس وهو شديد الإحساس ولكنه يبكى فى ضحكه ويضحك فى بكائه وهو كثير الشكوى والتضجر قليل الصبر مثل صاحب الاغتراب تحز فى نفسه قيود القدر المحتوم فيجتهد أن يصدها عنه فلا يقدر فيزداد حزناً ويأساً ويفكر ولكن تفكيره غير منتظم وهو كثير الحيرة والشك بالرغم من غروره يترك ما يعنيه لما لا يعنيه : لا يعرف أى أفكاره وعاداته القديمة خرافات مضرة ولا أى أفكاره وعاداته الجديدة حقائق نافعة من أجل ذلك يضره القديم كما يضره الجديد فهو من قديمة وجديدة غريق بين لجتين أو مثل كرة بين أرجل المقادير فالى أين تقذف به تلك المقادير»(٩٣) وهذه الاغترافات صادقة تصويرها العام وتتضمن صورة تحليلية لجيل شكرى كله ، ثورة ١٩١٩ وما بعدها (٩٤) . وشكرى يشعر بأنه غريب عن نفسه : وهذا هو الشرط الأول لكل شعور رومانسى ، ولكل محاولة للوعى بالذات(٩٥)ومن ثم يأتى أبطال الاغتراب ثمرة هذا الوعى بالذات . وثمرة المعاناة من أجل تجاوز هذا الوعى بالذات إلى خلق تلك الذات وهنا يتراءى فجر الشخصية .

---

(٩٣) عبد الرحمن شكرى ، الاغتراف ، مطبعة جرجى غرزوزى ، الإسكندرية ، سنة ١٩١٦ ، ص ١٦ .

(٩٤) محمد مندور : الشعر المصرى بعد شوقى ، الحلقة الأولى ، مكتبة مصر ، (بدون تاريخ) ، ص ٩٩ .

(٩٥) جاك بيرك : مصر تبحث عن الوجدان ١٩١٩ ، الهلال ، أبريل ١٩٥٨ ، ص ١٧٧ .

ويصور د. طه حسين « النفوس القلقة » فيقول : « وهى نفوس المصريين جميعاً لا نستثنى منها نفساً .. ، فالغنى قلق على ثروته لأنه يرى حوله من الأحداث العامة والخاصة ما يذود عن قلبه الأمن ... ونفوس الموظفين قلقة لأن أجورهم لا تضيق بأيسر حاجاتهم ... وغير الموظفين من عامة الشعب قلقون لأن حاجاتهم كثيرة ، وأيديهم قصيرة ... فهم ينكرون هذا التناقض الذى يكرهون على العيش فيه ، وأى شىء أثقل من أن تمتد الآمال إلى غير حد ، ومن أن تتقاصر الأعمال إلى أضيق حد؟ فإذا أضفت إلى هذا كله أن الحياة العامة ليست خيراً من الحياة الخاصة ، وأن الشعب المصرى كان وما زال مستيقنا بأن من حقه أن يكون شعبا مستقلا ... ثم هو ينظر فيرى استقلاله ما زال فى درج من أدراج وزارة الخارجية البريطانية سجينا ... فإذا نظر الشعب فرأى شيوخه ونوابه ووزراءه ، لا يحتملون الأعباء كما كان ينبغى أن يحتملوها ولا يصرفون الأمور كما ينبغى أن يصرفوها ... وتعجبهم مع ذلك نفوسهم فلا يستطيعون أن يتخلوا عن مناصبهم ومراكزهم ، وإنما يظلون جاثمين على صدر الشعب »(٩٦) وهكذا فالعجز المادى عن إشباع الحاجة والاستقلال الشكلى والتزييف السياسى كل ذلك مجتمعا دفع بنفوس المصريين إلى الاحتراق فى أتون الاغتراب حتى هتف د. عبد الرحمن بدوى « نحن جيل من الشباب القى بنا المجهول فى عالم غريب » ويقول « ولم نسمع لبلادنا رأيا فى شىء بينما كان الشباب فى كل مكان يفاخر بما لبلاده من نصيب وافر فى تشكيل العالم ... بل كنا عبيدا مسخرين ... عرفنا الحرب ، ولكننا عرفناها على أنها « حماية » تعلن علينا تصبح بعدها عبيدا ، وعرفنا أهوالها على أنها « سلطة » تسخر آباءنا ظلما وبلا أجر .. وعرفنا مراراتها فى ذلك الحرمان

---

(٩٦) د. طه حسين ، بين بين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية ، شباط ١٩٦٠ ، ص ٩٩ — ١٠٣ .

المادى والروحى الذى ضرب علينا طوالها فكنا مسلوبين من قوت الروح وغذاء البدن ، لا نفكر ولا نعيش إلا لنزداد ذلا وهوانا تحت نير الغاصبين من كل ملة وأمة »(٩٧) . شعر المصرى نتيجة لاستلاب المستعمر لحريته السياسية ولثروته الاقتصادية بأنه « غريب الدار » وتعكس الأغنية الشعبية « بلدى يا بلدى . . . السلطة خدت ولدى » اغتراب الإنسان المصرى عن بلده . فالشاب المصرى نشأ فى حالة من العدم الروحى والمادى لا يبلغ مداها التعبير :

ومما زاد من قلق المثقف المصرى وتمزقه أنه كان « يقاوم المستعمر الأوربى بقيم أوربية ، لأنه كان يرغب فى أن يدخل بلاده فى دائرة الحضارة الحديثة ذات الصبغة الأوربية الغالبة . ومن هنا نشأ قلق من تفكيره فى المدى الذى يتقيد فيه بالتراث الإسلامى »(٩٨) أضف إلى ذلك وجود فجوة ثقافية بين المثقف المصرى (كما فى حال أبطال الاغتراب) والشعب . وشعوره بأنه ينتمى ثقافيا إلى حضارة أعلى من حال البيئة التى يحيا فيها ، فإذا هجر المثقف بيئته تولد لديه شعور أليم بالعزلة وضيق ناشىء عن لاانتمائه ، وإذا استمر فيها شعر بالضيق والقلق لأنه يعيش فى غير وسطه ومستواه . وفوق هذا وذاك ، إشعار المستعمر المثقف بأنه دائماً تابع ، وأنه مهما كد واجتهد لا يمكن أن يصل إلى المستوى الثقافى الذى وصل إليه مستعمره . وقد حاول المثقف أن يعالج شعوره بالنقص ، ولكنه بدلا من أن يكون ذاتيا فى محاولته قلد المستعمر فى طرق حياته وأسلوب تفكيره ، حتى يبلغ مستواه ، فزهدت قيمته . ومن هنا ظهرت ظاهرة التغريب أو الفرنجة Westernization(٩٩) ومما زاد من بلبال الموقف أن المثقف لم يتبع طريقاً واحدا فى التقليد ،

---

(٩٧) عبد الرحمن بدوى ، المرجع السابق ، ص ١٢١ .

(٩٨) د. مجدى وهبه ، حوار ، العدد الرابع ، مايو – يونيو (آيار /حزيران (١٩٦٣ ص ٣٢ .

(٩٩) د. حلمى على مرزوق : تطور النقد والتفكير الأدبى الحديث فى مصر فى الربع الأول من القرن العشرين ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٦ ، ص ٥١ .

فبعضهم أخذ عن الثقافة الإنجليزية وآخر عن الثقافة الفرنسية ... الخ ، فتعددت النظريات واختلفت المناهج ، وأدى ذلك إلى فوضى ثقافية بين من يريدون أن يصلحوا أحوال بلادهم .

ولقد خلقت المسافة الثقافية الواسعة التى تفصل بين المثقف وجماهير الشعب آفة الغرور إذ يقيس نفسه عادة بالمجموع الذى يعيش فيه « والأعور فى بلد العميان ملك »، كما يقول المثل الشعبى . إنه يعتقد أنه وصل إلى أعلى درجة فى الكفاية والمعرفة فإذا شعر بأنه يعمل فى دائرة محدودة دون أن يرسمها هو لنفسه أمتلأت نفسه حزناً وكآبة (١٠٠) .

وهناك سبب آخر يتصل بالمشكلة القومية التحررية أعنى قلق المثقف بما حدث لمأساة فلسطين فقد شكلت تهديداً لأمنه وأرضه هو وأشعرته بأن المرحلة التالية سيكون هو فريستها . وربما كان هذا القلق الناجم عن هذه المشكلة ألصق بوجدان المثقف المصرى العربى من هذا القلق الذى يعم المثقفين فى جميع أنحاء العالم بعد دخول العالم العصر الذرى والتفجير النووى وشعور المثقفين بأن مصيرهم بأيدى قلة لها وحدها الرأى الأخير فى مصير العـــالم .

الغربة الايدولوجية

وثمة سبب آخر نشأ نتيجة استغراق جهود المثقف فى عدم تحديده هوية ماضيه الحضارى وعدم قدرته على الانتماء إلى اتجاه أيديولوجى يحدد مستقبله، ويحدد « محمد عودة » أبعاد الصراع فى نفوس هؤلاء المثقفين فيقول « ... ولقد نشأ هذا الجيل (جيل ما بعد ثورة ١٩١٩) وازدهر فى ظل جمود وركود الحركة الوطنية . وتحولها من معركة ثورية شعبية إلى قضية سياسية.

فى تلك الفترة ، كانت الثورة قد تحولت إلى صراع سياسى بين القصر والوفد والاستعمار أو صراع حزبى ، بين أحزاب الأقلية وبين حزب الأغلبية.

---

(١٠٠) د. مجدى وهبه ، المرجع السابق ، ص ٣٨ .

وقد نشأ هذا الجيل أيضاً ، فى ظل تغير جوهرى فى شكل العالم ، وفى ظل أحداث عالمية كبيرة فقد اشتد الصراع الدولى .. ولم يعد مجرد صراع بين دول كبرى ، وأطماع دول كبرى ، ولكنه اكتسى صبغة مذهبية ، وأصبح صراعاً بين الفاشية والرأسمالية والشيوعية . وكان الجيل الجديد أكثر قدرة من أى جيل قبله على النفاذ إلى العالم الخارجى والتأثر به والتفاعل معه . . .

وفى البلاد المتخلفة يوجد دائماً خلال معركة البحث عن مخرج من يتصورون أن الخلاص فى النظر إلى الخلف ، وبعث الماضى . . . ويوجد من يتصورون الخلاص فى القفز إلى الأمام وإسدال ستار كثيف على الماضى وذل وهوان الماضى . . . ويوجد من يرون الخارج ، وأن لاخلاص إلا باستعارة حل نجح فى الخارج ، أو ساد ورسخ فى الخارج ويوجد أيضاً ، من يرون موقعهم فى العالم ، ومن يرون أنفسهم وسط العالم . . . وحدث هذا للجيل الجديد فى مصر فى ثلاثينات هذا العصر . . . وتوزع الجيل الجديد فى مصر . . . بين أحزاب جديدة ، واتجاهات جديدة ، تريد بعث مجد الإسلام أو مجد الإمبراطورية العربية ، وأحزاب فاشستية تريد إقامة فاشستية مصرية كما نجح هتلر وموسلينى ، وأحزاب شيوعية تريد نقل النظرية الشيوعية والتجربة الشيوعية إلى مصر ... وقد تميزت هذه الأحزاب بضعفها النظرى والأيديولوجى ، فهى لم تستطع أن تلائم ما نقلته من الخارج إلى واقع هذه البلاد ، ولم تستطع أن ترفع وتجدد ما استخلصته من الماضى إلى مستوى العصر وروح العصر .. وتحول الخلاف النظرى والسياسى بين هذه الأحزاب الجديدة إلى حرب دائمة لاتهدأ .. وسرت إليها عدوى الأحزاب القديمة ، وأصبحت الحياة السياسية فى مصر ، حربا بين الأحزاب القديمة وبعضها ، وبين الأحزاب الجديدة وبعضها ، وبين الأحزاب القديمة والجديدة أيضاً . وتردت المسألة الوطنية فى هاوية جديدة ... غير أن هذه الأحزاب كان لها جانبها الإيجابى ، فقد كانت تعبيرا صادقاً مخلصاً عن إرادة الجيل الجديد فى العثور على الحل والوصول إلى المخرج الثورى وهى قد بددت الركود

البورجوازى والإقطاعى الذى فرضته الأحزاب القديمة ، وأضرمت المعركة الأيديولوجية والسياسية ، وبهذا استطاعت أن تصل مصر بحياة العصر وأن تطرح المشكلة وتحدد أبعادها ، وإن لم نجد لها حلا(١٠١) وقد كان لتوزيع جهود المثقفين فى أيديولوجيات متنافرة أثر فى تبديد تلك الجهود وأشعرت الثقف بالغربة .

هذه هى السمات العامة التى ترقد خلف أبطال الاغتراب وتعكس أزمة جيل حمل عبء أمانة مواجهة الحضارة الأوربية المنتصرة ، المستعمرة ، وكان عليه أن يزرع ما تعلم فى الأرض المصرية حتى يعيد بناء حضارة الإنسان المصرى .

---

(١٠١) محمد عودة : المثقفون والثورة ، الجمهورية ، الخميس ٢٤ يناير ١٩٦٣ ، صفحة ٣ .